شخصيات وصور

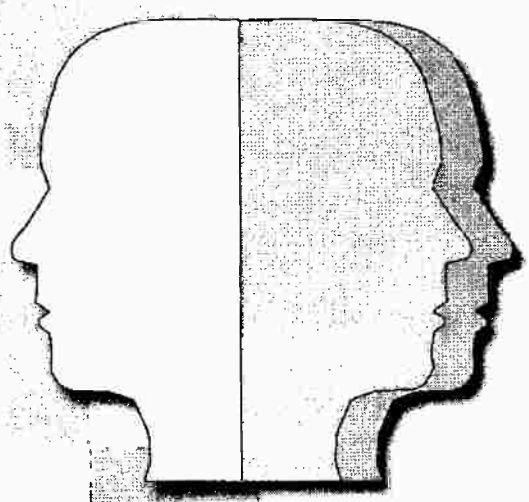

الرجل فوق السور .. وأذنه على الأرض

الفيلسوف هو الرجل الذى يعرف : ماذا يريد الإنسان .

والمؤرخ هو الرجل الذى يعرف : ماذا فعل الإنسان .

أما السياسى .. فهو الذى يعرف : ماذا يفعل الإنسان .

فرجل السياسة ، اذن، مهمته أصعب من المؤرخ .. وأعقد من مهمة الفيلسوف .إنه يبدأ بالحاضر .. لكى يصل إلى المستقبل . وهو لايملك فى سبيل ذلك سوى أداة واحدة : الاستكشاف . فالاستكشاف هام فى السياسة ، مثلما هو فى الحب .. وهام فى الحرب .

من هنا يقول المؤرخون دائما إن السياسى رجل .. مهمته أن يجلس عاليا فوق السور .. بينما يحتفظ بأذنيه على الأرض .

والسياسة وجدت منذ وجد العالم الذى نعيش فيه . قبل ٢٣٠٠ سنة قال أرسطو : إن الإنسان – بطبيعته – حيوان سياسى .

ومنذ أرسطو حتى الآن اختلفت مفاهيم السياسة وتطبيقاتها .

فى البدء كان العالم ينقسم بين اثنين فقط : الله .. وقيصر .ولذلك كان يقال : ان السياسة هى فن منع الناس من التدخل .. فيما يعنيهم .

لكن العالم فى العصر الحديث أصبح ينقسم بين ثلاثة : الله .. وقيصر .. والناس . فالشعب – أى شعب – أصبح هو محور السياسة وطاقتها المحركة . ولذلك أصبحت للسياسة معان جديدة .

● جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٦٧/٩/٩ .

أن لينين مثلا يقول : إن السياسة .. هى اقتصاد مركز . ونابليون يقول : السياسة تخلق الحوادث .. وليس العكس . وبسمارك يقول : السياسة .. هى فن التعامل فى حدود الممكن . أما ميكيافيلى فيقول : لا أخلاق فى السياسة . وبعد ٤٠٠ سنة جاء شخص آخر فى الشرق الأوسط ـ هو ديفيد بن جوريون الزعيم الحزبى فى اسرائيل – ليرفع نفس الشعار مرة أخرى : لا أخلاق فى السياسة .

□□□

والواقع ان السياسة هى مزيج من كل هؤلاء : لينين ونابليون وبسمارك وميكيافيلى . أصبحت مهمة السياسى تأتى بعد المؤرخ ، وقبل الفيلسوف . ومن حاصل جمع السياسة والسياسيين خرج فى السنوات الأخيرة شىء جديد اسمه : النظرية السياسية .

ما هى النظرية السياسية ؟

هذا هو السؤال الذى تخصص فيه انسان مصرى مؤخرا ، وظل يدرسه ١٧ سنة . إنه يقول : إن النظرية السياسية هى مختلف الوسائل التى تسمح بالتحكم فى ، وضبط ، النشاط السياسى للأفراد والجماعات .

والكلام قد يبدو صعبا فى البداية . ولذلك سأذهب معك الآن إلى هذا الإنسان المصرى لكى يفسر لنا أكثر : ما هى النظرية السياسية ؟

لكن دعنى أولا أقدم لك هذا الر جل . إنه عبارة عن حاصل جمع الأرقام التالية : ٩٧ كيلو (وزنه).. متر و٨٠ سنتيمتر (طوله) .. أربعون سنة (عمره).. مائة جنيه (مرتبه).. ثلاثون ألف كيلومتر (رحلاته).. عشرة آلاف كتاب (مكتبته).. ألفان وأربعمائة صفحة (مؤلفاته).. أربع حجرات وصالة (مسكنه).. ثلاث وعشرون بوصة (جهاز تليفزيونه – ماركة نصر).

لكننى نسيت أهم حقيقة عنه .. فأولا : اسمه حامد ربيع ، ووظيفته الآن أستاذ بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة .ونسيت أيضا أن أقول انه ليس شخصا واحدا . انه دكتور واحد – هذا صحيح – ولكنه مضروب فى سبعة . فهو دكتور سبع مرات .. أو رجل حصل على سبع شهادات دكتوراه .. حسب ما يقول هو .

لقد حصل على شهادة الدكتوراه خمس مرات من جامعات ايطاليا فى : تاريخ القانون .. فلسفة السياسة .. العلوم السياسية .. العلاقات الدولية .. الحضارات القديمة . ثم حصل على الدكتوراه مرتين من باريس فى : القانون .. وعلم الاجتماع

السياســى . والخيط الرفيع الذى يربط بين شــهاداته العلمية السبع هو موضوع واحد : النظرية السياسية .

❑❑❑

– ماذا تقصد يا دكتور حامد بالنظرية السياسية ؟

ويقول الدكتور (ســبع مرات) حامدربيع : النظرية السياســية هى اصطلاح لم يتردد فى العالم إلا منذ عشرين عاما فقط . وفى تعريف النظرية السياسية نجد ثلاثة اتجاهات . الإتجاه الأول يقصد به الفلسفة السياسية . إنه اتجاه قديم ، ظهر أساسا فى القرن التاسع عشــر . أما المفهوم الثانى لتعبير النظرية السياســية فهو المفهوم الماركســى . هذا المفهوم يرى أن النظرية السياســية ليســت إلا علما تطبيقيا .. يدور حول استخلاص نتائج الخبرة الماركســية فى مختلف المجتمعات . أما المفهوم الثالث – الحديث والمســلم به – للنظرية السياســية فيقول إنها عبارة عن مختلف الوسائل والأدوات الفكرية والتجريبية التى تسمح بالتحكم فى النشاط السياسى .

وبهذا المعنى فإن كل منا يصدر يوميا – أو ينفذ – قرارا سياســيا . وبهذا المعنى أيضا فإن السياســة الحديثة تســتخدم فى تحليلاتها العقل الإلكترونى .. وتلجأ إلى الأساليب الرياضية والإحصائية .. ويعبر عالم السياسة عن مفاهيم السياسة بمعادلات رياضية كعالم الذرة تماما .

«وعندما تعطى لطفل صغير صورة فيل مثلا .. وهى ممزقة إلى أجزاء صغيرة .. دون أن يعــرف أن الصورة لحيوان معين .. ثم يظل الطفل يجمع أجزاء الصورة ويوفق بينها .. إلى أن يكتشف فى النهاية أنها صورة لحيوان معين هو الفيل ..

«إن هذه العملية هى – فى بســاطتها – تعبير عن نفس المهمة التى يقوم بها التحليل السياســى . فعالم النظرية السياســية ، عندما يحلل موقفا سياســيا معينا ، يظل يجمع العناصر المتناثرة .. ثم يلجأ إلى علمه وخياله معا .. لكى يخرج فى النهاية بصورة متماسكة تعبر قدر الإمكان عن الواقع الحى» .

وأسأل الدكتور حامد ربيع : ماهى شروط نجاح عالم النظرية السياسية ؟

ويرد معددا بيده اليمنى على أصابع يده اليســرى : أولا يجب أن يكون صاحب نظرة واضحــة وصريحــة وحكم قاطع علــى الأحداث .. أى لابد من موقف سياســى واضح من

البدايـــة . هذا لايعنى أن عالم النظرية السياســية يجب ألا تكــون وظيفته مطلقا التصفيق والطبــل والزمــر على غرار جماعة المنتفعين الذين يزدان بهم كل نظام سياســى .. والذين وجدوا منذ أن وجدت السلطة وبريقها ..

«بعد ذلك هناك ضرورة توافر الإعداد المهنى للممارســة السياســية .. فالسياسة اليوم لم تعد هواية . والسياســة اليوم ، كأى مهنة أخرى ، لابد لها من دراســة طويلة إلى جانب المواهب الطبيعية . والسياسى كالجراح مثلا .. يجب أن يكون لديه استعداد معين وثقافة أكاديميــة معينة . فكمــا أن حلاق الصحة مهما ارتفع بخبرته لايمكن أن يصبح جراحا .. فكذلك الممارسة السياسية ..

«والسياسة هنا إطارها واسع جدا . إن إقامة مدرسة مثلا فى هذه القرية دون تلك .. هو قرار سياســى . وإقامة مصنع لإنتاج هذه الســلعة دون تلك .. هو قرار سياسى . والسياسة نفســها مســتويات تتراوح بين السياســة الخارجية وبين اتخاذ القرارات السياســية وبين التنفيذ ثم المتابعة . ولكل مستوى شروطه ومواصفاته . فالابتكار والقدرة على التنبؤ الدقيق شــرطان أساســيان فى خبير السياســة الخارجية .. بينما الأمانة فى النقل والاستقبال ثم الارسال شرط له الأولوية فى المنفذ السياسى».

وأسأل من جديد : ما هو الفرق بين السياسة .. والنظرية السياسية ؟

ويــرد حامد ربيع : السياســة هى تدبير أمور الدولة . هى قيــادة مجتمع ما . وبهذا المعنى فكل منا سياســى بشــكل أو بآخر .الأب سياسى داخل أسرته . والناظر بمدرسته . والموظف بمكتبه . أما النظرية السياسية فهى اكتشاف القوانين التى تحكم التطور السياسى بواسطة البحث العلمى . إنها تفسير لظاهرة السلطة .

سؤال آخر : ماذا يلفت نظرك فى دراسة التاريخ السياسى المصرى المعاصر ؟

ويــرد : هناك ظاهرتان فى تاريخنا السياســى . أولا : ان جميع الحضارات الأجنبية التــى دخلــت إلى مصر انتهــت باندماجها فــى الواقع المصــرى .. أى حدثت لها عملية تمصير.. بينما لم تكن القاعدة كذلك فى مجتمعات أخرى كثيرة . قارن مثلا بين الحضارة الإنجليزيــة عندما دخلت مصر بعد الإحتلال فى ســنة ١٨٨٢ .. وبينها عندما دخلت إلى الهند . فى الهند حدث تجاوب حضارى . فى مصر لم يحدث .

«هـذه واحدة . أما الظاهـرة الثانية فهى وجود تقاليد ثورية مستمرة بغير انقطاع فى التاريـخ المصـرى . كانت هناك تقاليد ثورية يمثلها عمر مكـرم أيام محمد على . ويمثلها أحمد عرابى فى ١٨٨١ ثم سـعد زغلول فى سنوات ثورة ١٩١٩ .. وللأسف لم تدرس هذه التقاليد بطريقة علمية ..

«ومرة أخرى .. لو أتيحت هذه الدراسـة العلمية للتاريخ السياسـى المصرى ، لاكتشفنا أنه فى سـنة ١٨٨٢ عرفت مصر نظاما سياسـيا أكثر تقدما مما كان موجودا فى كل أوربا بما فيها روسـيا وايطاليا وألمانيا (وباسـتثناء فرنسـا وبريطانيا) . كان هذا النظام يسلم ، على الأقل ، بمبدأ مسئولية السلطة السياسية أمام ممثلى الشعب .. ولذلك أسقطه الإنجليز بمجرد احتلالهم لمصر».

□□□

قلـت متحدثا عن الفترة التالية فى تاريخ مصر : هل تسـتطيع أن تحدد لى شـخصية مصرية تمثل نموذجا للكفاءة السياسية من الوجهة العلمية ؟

قال حامد ربيع : طبعا . هذا النموذج واضح جدا فى سعد زغلول . لقد كان تعبيرا عن قوة وصلابة فى الشـعب المصرى يندر أن تجدها فى مجتمع آخر معاصر فى تلك الفترة . خـذ مثلا عندما جاءت لجنة ميلنر الإنجليزية إلى مصر لبحث أسـباب الاضطرابات إبان ثـورة ١٩١٩ . ان اللجنة لم تسـتطع أن تجد مصريا واحـدا يتفاوض معها . إن قيمة هذه الظاهـرة تتضـح حينما نتذكر أنه لم يكن فى مصر خـلال تلك الفترة أى رأى عام منظم ، أو وسـائل منظمة للثقافة العامة ، كما لم تكن هناك أية حماية لسياسـى مصرى ، وكانت وسـائل التعذيب الوحشـى متبعة على نطاق واسـع . ومع كل ذلك لم يقبل مصرى واحد التفاوض مع لجنة ميلنر . وحينما اخترت لك سـعد زغلول نموذجا للبراعة السياسـية .. فإننى اخترته فى إطار العصر الذى عاش فيه والظروف التى أحاطت به .

وأسأل من جديد : ماهو النبوغ السياسى ؟

قال حامد ربيع : هو معرفة واقع مجتمع معين والتعبير عنه بأساليب هذا المجتمع .

قلت : ومن هو الرجل السياسى ؟

أجـاب : هـو الرجل الذى يؤمن بفكرة ويسـعى لتحقيقها عن طريـق تغيير المجتمع الـذى يعيش فيه . فالرجل السياسـى لايمكن أن يكون سـلبيا ، ولايمكـن أن ينعزل عن

الحـوادث ، أو يعزلها عنه ، ويجعل هدفـه فى الحياة تطويع ظروف المجتمع للتجاوب مع هذا التغيير .

هنا وجدت نفسـى أعود إلى التاريخ السياسى المصرى .. فسألت الدكتور حامد ربيع : كيف تحدد التطور السياسى الذى جرى فى مصر خلال تاريخها الحديث ؟

قال أستاذ العلوم السياسية : الواقع ان هناك ثلاث ثورات دخلتها مصر وتواجهها فى وقت واحد . فأولا هناك الثورة الوطنية .. أى الثورة التى تستهدف تحقيق الإستقلال وعدم التبعية .. وقد بدأت منذ التدخل الأجنبى فى شـئون مصر أيام الخديو اسماعيل .. وكان الزعيم الأول لهذه الثورة هو أحمد عرابى .. وظلت حلقاتها تتابع إلى أن اسـتكملت مصر استقلالها السياسى بعد ثورة ١٩٥٢..

«أمـا الثورة الثانية فهى الثـورة الحضارية .. بمعنى الثورة لتطويـر قيمنا الاجتماعية ونظمنـا الثقافية حتى تصبح صالحة للقرن العشـرين . وهذه الثورة بدأت منذ نهاية القرن الثامن عشر وحتى قبل وصول محمد على إلى الحكم . ورغم أنها تعثرت فى أكثر من مرحلة من مراحلها فإننا مانزال فى مدخلها ..

«أمـا الثـورة الثالثة فهى الثـورة الوحدوية أو الاندماجية . وهـى تعنى اندماج العالم العربـى فـى دولة عربية واحدة . وهذه الثورة لم تبدأ فـى التبلور إلا بعد الحرب العالمية الثانية ..

«إن كل من هذه الثورات الثلاث لها طبيعتها المسـتقلة . وتاريخنا السياسـى يواجهها جميعـا فـى وقت واحـد ، وهذا يزيد من صعوبتها . خذ مثلا غـرب أوربا . إنه يمر الآن بالثـورة الوحدويـة أو الاندماجية ، فقط ، لأنه انتهى مـن الثورتين الأولى والثانية . بينما دول افريقيا تواجه الثورة الأولى لتحقيق الاستقلال الوطنى سياسيا واقتصاديا ولم تدخل بعد أيـا من الثورتين الثانية والثالثة . خذ مثلا الهند أيضا . إنها تواجه الآن الثورة الحضارية فقط ، لأنها انتهت من الثورة الوطنية ، ولا تواجه الثورة الاندماجية».

سألته : ماهو مقياس الثورة الحضارية فى رأيك ؟

أجـاب : المقياس هو مدى احتفاظ الدولة بمجموعة من القيم التى يجب على الفرد أن يحترمها بدافع من وعيه الخاص . تسـتطيع أن تسـميها روح الجماعة . تستطيع أيضا أن

تسميها احترام المصلحة العامة . فبهذا المفهوم لاتنحصر المصلحة العامة فى نصوص آمرة وقوانين جامدة .. بل تصبح جزءا من التقاليد الاجتماعية والوعى الاجتماعى . وأحب أن أنبه إلى أن هذا المفهوم للدولة العصرية يختلف عن مفهوم آخر موجود فى الفكر السياسى . إن المفهوم الثانى يقصد إلى ضرورة وجود دولة حديثة . دولة كفء . دولة قوية . وأنا أتذكر أحد الزعماء الفرنسيين حينما رد على روبسبير ابان الثورة الفرنسية قائلا له : اختر الشيوعية أو اختر الإشتراكية أو الفردية .. اختر كما تشاء .. ولكن لابد – وقبل كل شىء – أن تعطينى دولة قوية .

سؤال آخر : هل هذا المفهوم للعصرية له أساس سابق فى الفكر السياسى عندنا ؟

قال بعد أن خلع عن عينيه نظارته الطبية ووضع يده اليمنى على جبهته مستذكرا : نعم . لقد كان مفهوم الدولة العصرية موجودا فى الحضارة الإسلامية .. أو على الأقل .. موجودا نظريا فى كتابات فقهاء الحضارة الإسلامية . خذ مثلا الفصل ٢٥ من مقدمة ابن خلدون . لقد تصور فيه أنه يكتب خطابا إلى أحد الحكام وعدد له مظاهر الدولة الكفء – أو العصرية أو القوية .. حسب التعبير الذى تفضله . قال ابن خلدون إن الحاكم يجب أولا أن يكون ناجحا فى حياته الخاصة .. ثم يجب ، وهذا ضرورى ، أن يمتنع عن التدخل فى أعمال المتخصصين .. أو الفنيين أو الخبراء بالتعبير المعاصر ..

«بل وأقول لك أكثر من ذلك : إن ابن المقفع عبر أيضا عن نفس المفاهيم فى رسالة مشهورة له قبل ابن خلدون واسمها رسالة الصحابة».

□□□

بالمناسبة : أود أن أنبه القارئ إلى شىء لافت للنظر . فالجامعة العبرية فى اسرائيل هى من أكثر جامعات العالم اهتماما بدراسة مؤلفات ابن خلدون .. واهتماما بإجراء الأبحاث حولها . أليست تلك ظاهرة غريبة حقا ؟

وبالمناسبة ، مرة أخرى .. تذكرت اسرائيل فور الحديث عن الجامعة العبرية ، فسألت الدكتور حامد ربيع : هل تعتقد أن اسرائيل تمثل ايديولوجية خاصة فى الشرق الأوسط ؟

ورد أستاذ العلوم السياسية : طبعا .. لأن اسرائيل دولة قامت أساسا على فكرة التعصب العنصرى . وبالنسبة لإسرائيل هناك نقطتان أود الضغط عليهما . فأولا – ان

اســرائيل من الداخل مكونة من مجتمع غير متجانس . والشــىء الوحيد الذى يجمع بين سكانها هو أنهم .. يهود . ولذلك نجد أن الحروب المتكررة التى تخوضها اسرائيل ليست فقط مســألة سياســية . بل تمثل الفرصة الوحيدة لتحقيق الاندماج والانصهار بين العناصر غير المتجانسة التى يتكون منها مجتمع اسرائيل .

«وثانيــا : ان اســرائيل تمثل امتدادا لأوربا فى الشــرق الأوســط . فهــى تقوم بدورها الاســتعمارى والعســكرى نيابة عن القوى الأوربية والغربية .. قديمها وجديدها وصولا إلى الولايات المتحدة» .

❑❑❑

وأمســكت بساعتى فاكتشفت إنه قد مضى ســاعتان وربع ساعة على هذا الحديث مع الدكتور حامد ربيع .

و ... لقد قلت فى أول هذا الحوار إنه رجل واحد مضروب فى ســبعة . وأســحب الآن تلك الجملة لكى أكتبها من جديد هكذا : انه عقل واحد .. مضروب فى سبعة . وسأكتب أيضا : إن قيمة أى أمة ، على المدى الطويل ، هى قيمة الأفراد الذين تتكون منهم .

ولكن .. هل هذه حقيقة جديدة ؟

رجل .. بأثر رجعى !

حجر . حجر آخر . يمر الإنسان ويرى الحجرين يقعان جنبا إلى جنب . ولكن : ماذا يعرف هذا الحجر عن الحجر الذى يجاوره ؟ أو .. ماذا تعرف مياه النيل عن البحر الذى تصب فيه ؟ أو .. هل تعرف النجوم فى السماء أن هناك أرضا تحتها ترصدها وتتابعها ؟ أو – للمرة الأخيرة – ماذا يعرف الجيل القديم عن الجيل الجديد ؟

إنهما جيلان . يعيشان فى عصر واحد . فوق أرض واحدة . غالبا داخل منزل واحد . ومع ذلك ، فكل جيل منهما غريب عن الآخر . غريب تماما . سماء مختلفة . قيم مختلفة . بطولات مختلفة . أحلام مختلفة .

نحن إذن غرباء . غرباء فوق نفس الأرض ، وداخل نفس المنزل .

غرباء .. لماذا ؟

لماذا هذا الشعور بالغربة بين الذين هم آباؤنا مؤقتا ، وبيننا نحن .. أبناؤهم مؤقتا ؟

Yن صفة الأبوة عند الجيل القديم ، وصفة الشباب عند الجيل الجديد .. لاتعطى لأحدهما ميزة على الآخر . الأبوة والشباب هى أصلا كالرجولة والأنوثة : إنها ليست اختلافات فى النوع – فليس أحدهما أفضل من الآخر – ولكنها اختلافات فى الوظيفة . ومشكلة الجيل الجديد – وأنا واحد منه – أنه جيل بلا وظيفة . وبدقة أكثر : نحن جيل يبحث عن وظيفة . عن اختصاص . عن دور . هذه هى المشكلة .

لماذا هذه المشكلة ؟ ولماذا الآن ؟ ثم .. لماذا مع هذا الرجل ؟ لماذا أثيرها مع الدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن السكرتير العام المساعد لمنظمة الأمم المتحدة ؟ إنه مصرى مثلى

● جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٦٩/٨/٣ .

– هذا صحيح – ولكننا نقف فى موقعين مختلفين . إنه من الجيل القديم ، وأنا من الجيل الجديد . حكم السـن . إنه من الآباء .. وأنا ـ حتى الآن على الأقل ـ مازلت من الأبناء . حكم الصدفة . إن رأسماله هو ماضيه . وأنا رأسمالى هو مستقبلى . صفقة غير متساوية .

لماذا إذن هذا الرجل ، وكل شىء فينا يبدو ضد الآخر من البداية . كل شىء فينا غريب عن الآخر مقدما .

إن السـبب بسـيط بقدر ما هو محدد : إن هذا الرجل هو واحد من القليلين الذين حلوا المشـكلة . واحـد من الذين حولوا التناقض المبدئى بين الجيـل القديم والجيل الجديد إلى ميـزة لصالحه . واحد من الذين تخصصوا فـى إعطاء فرص للجيل الجديد ، لا من الذين تخصصوا فى سحب الفرص من الجيل الجديد . واحد من الذين استخدمهم الجيل الجديد جسـرا إلى المسـتقبل ، ولم يجدهم سـدا عاليا يحجز عنهم المستقبل . ثقة فى النفس . إن عشرات من الشباب البارزين فى بلدنا الآن هم أمثلة حية لما أقول : فى البحوث الذرية ، فى التخطيط ، فى الإدارة ، فى الصناعة .

ابراهيم حلمى عبد الرحمن هو إذن اسـتثناء على قاعدة عامة . أليس من الطبيعى إذن أن نحاول فهم الرجل ، بعد أن حاول هو فهمنا .. نحن الجيل الجديد ؟ إننى أجلس معه فى مكتبه بالدور الثامن عشر من مبنى الأمم المتحدة بمدينة نيويورك . مبنى ضخم أقيم فى سنة ١٩٥١ . إننى فى مقعد المستمع ، بينما ابراهيم حلمى عبد الرحمن يتكلم :

«... إن الانفصال الحالى بين الأجيال له أسبابه المشتركة فى العالم كله ، بالإضافة إلى أسبابه المحلية فى كل مجتمع ..

«إن التطور التكنولوجى والعلمى الذى تم فى العشـرين سنة الأخيرة مثلا يبلغ أضعاف التطور الماثل الذى حققته البشرية طوال ألف سنة . كل يوم اختراع جديد . منتج جديد . وسيلة جديدة .

«قبـل عصـر محمد على فى مصر مثـلا .. ظل المجتمع يأكل ويعيـش ويلبس ويعمل بنفس الطريقة مئات السنين . بل حتى الأغانى والمواويل ظلت هى هى لم تتغير . أما الآن فابنتـى مثـلا تفضل أغانى مختلفة عـن ما أفضله أنا .. فما بالـك باختلاف تفكيرها عن تفكيرى أنا ؟

«هناك إذن عوامل كثيرة – علمية وتاريخية وثقافية – حولت التوازن المستمر بين الجيل القديم والجيل الجديد إلى خلخلة مستمرة . هناك أحماض كيماوية تقلب علاقة الجيلين يوما بعد يوم . هناك تفاعل مستمر إذن . وحينما لايتم هذا التفاعل فى جو صحى مفتوح تكون النتيجة دائما هى سوء فهم مستمر بين الجيل القديم والجيل الجديد . إنك تستطيع الآن أن تقسم الناس حسب أعمارهم بأكثر مما تستطيع أن تقسمهم حسب مركزهم الاقتصادى . مجرد اختلاف السن أصبح مؤشرا على اختلاف التفكير واختلاف أسلوب النظر إلى الأمور .

«ومع ذلك فإن سوء الفهم هذا من الممكن تفاديه مقدما لو أن المناخ العام فى المجتمع يعطى الفرصة أولا بأول لتبادل وجهات النظر بين الجيل الجديد والجيل القديم . إذا لم يحدث ذلك تكون النتيجة تراكما مستمرا للاستياء المتبادل بين الجيلين . مرض . إن أخطر سمات هذا المرض أنك لا تكتشفه إلا متأخرا جدا . إنك تنظر إلى مياه النهر فتتصور أنها هى هى لم تتغير منذ سنين ، مع أن تيارات المياه تندفع تحت السطح باستمرار . لقد كان هذا هو سبب اصطدام الشباب بالجيل القديم فى أمريكا وألمانيا وفرنسا وفى العالم كله ، وهى الظاهرة التى نتناقش فيها الآن .

«إنك تعطينى أكثر مما أستحق حينما ترى أننى أعطيت فرصا ضخمة لعدد كبير من الشباب . فى الواقع كانت هناك ظروف موضوعية تسمح بذلك . مثلا ، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بدأت كل المجتمعات ـ المنتصرة والمهزومة ـ تحس بحاجتها إلى إعادة النظر فى نفسها . إلى مراجعة قيمها وأسلوب تفكيرها . السبب : إن الحرب خلقت توازنات جديدة ومراكز جديدة وكشفت فى نفس الوقت عن أخطاء قديمة . النتيجة : الحاجة إلى دماء جديدة . إلى أفكار جديدة . هذا فى حد ذاته حافز قوى لإعطاء فرص للجيل الجديد وفتح المجال أمامه ليشارك ويفكر ويعمل و ....».

□□□

التليفون يدق . الحديث ينقطع . السماعة ترتفع . على الطرف الآخر يتكلم أوثانت السكرتير العام للأمم المتحدة . يبدو أن الحديث لن يكون قصيرا . وبينما كان الدكتور ابراهيم يتحدث مع أوثانت كنت أنا أراجع نفسى فى بعض انطباعاتى عن الرجل .

إن الدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن يبدو لأول وهلة كإحدى شخصيات قصص نجيب محفوظ : متهادن ، مستسلم ، مستمر ، ساخر . إنه يبدو هكذا مع أنه بعد لحظة

يبدو أقرب إلى الشخصيات المنتشرة فى مسرحيات توفيق الحكيم : مفكر .. محاور .. منطقى .. مشغول بالمستقبل .. وساخر . إنه إذن عنصر السخرية الذى يجعلك تخلط بين أصل شخصيته وطبيعتها .

لكننا لسنا فى حاجة إلى الاستعانة بشخصية تشبهه فى قصص أحد الكتاب . السبب: أن الرجل قد نحى شخصيته جانبا ، ثم قام هو بتأليفها وإخراجها وتصويرها – بل حتى بنقدها – على موضة الأيام التى ولد فيها (يناير سنة ١٩١٩) .

ان الكلمات تخرج من فمه بسهولة ولكن بهدوء . ابتسامته مفاجئة ولكن مشرقة . نظارة طبية تحتضن وجهه ولكن برفق . أذنه فى مكانهما تماما . شعره بدأ يتململ فوق رأسه بعد أن ظل ثابتا فى مكانه خمسين سنة . مدة كافية . والرجل نفسه تبدو عليه المتعة عندما يناقش ، ولكن الأسئلة التى تتناول حياته الشخصية مثلا لا تأخذ منه فى الإجابة سوى مجرد «نعم» أو «لا» أو «لم أكن» . مع ذلك ، فإننى سأحذف هذه الكلمات عندما أتناقش معه . وها نحن نعود إلى المناقشة .

أقول : تعرف .. أحيانا أحس أن علاقة الجيل القديم بالجيل الجديد تماثل علاقة الاستعمار الجديد بالدول النامية . إن الجيل القيم يظل يتحكم فى حياتنا وتفكيرنا أطول وقت ممكن . ثم يكتشف الجيل القديم أن جلاءه عن حياتنا أمر حتمى . حينئذ فقط يعطينا الاستقلال . استقلال وهمى . استقلال لم يتم إلا بعد أن اكتشف الجيل القديم وسائل جديدة للتحكم فى حياتنا وتفكيرنا . هذه هى الظاهرة التى لمستها فى أمريكا وألمانيا وفرنسا أيضا .

– ولكن هذه النتيجة يمكن تفاديها ..

– حسنا .. اخبرنى كيف تفاديتها أنت ؟

– لم أكن أخشى من أحد على أى مركز شغلته .

– لماذا ؟

– لسبب بسيط . لقد حرصت دائما على ألا أكون عبدا للوظيفة . للسلطة . إن الوظيفة هى مجرد وسيلة للعمل . ومن ناحيتى فإننى لم أكن أشغل وظيفة إلا إذا كنت قادرا مقدما على الاستغناء عنها فى أى لحظة . كنت أحرص دائما على حقى فى تطليق الوظيفة .

هـذه واحـدة . نقطـة أخرى : إننى كنت ومـا أزال حريصا فى حياتـى العادية على أن أعيش عند الحد الأدنى المقبول . الحد الأدنى من الالتزامات المادية أو الأدبية . ربما كان بعض السـبب فى ذلك أزمة مالية مرت بى فى مطلع حياتى . أزمة خرجت منها بنتيجة أساسـية : يجـب أن أكـون قادرا على نفسـى أولا .. قبل أن أكون قـادرا على غيرى . النقطـة الثالثـة هى أننى كنت حريصا على ألا أكون الرجـل الأوحد فى أى مجال أعمل به . لابد من صف ثان . إن اختفاء الصف الثانى فى أى وقت هو خرافة . الصف الثانى موجـود دائما . ووجود الصف الثانى شـرط جوهرى لنجاح الصـف الأول . حتى الأنبياء كان لهم حواريون . الفارق الوحيد هو إحساسك بأنك تمارس رسالة أو بأنك تعيش بمجرد الأقدمية . إذا أحسست بأنك تمارس رسالة فأنك ستكون حريصا على استمرارها من خلال صف ثان يخلفك .

قلـت : ألا يتغير شـعورك هـذا عندما يحقق أحـد تلاميذك نجاحا أكـبر مما حققته أنت ؟

أجاب الرجل : مطلقا . المسـألة مسـألة رسـالة كما قلت لك . عندما أحب الموسيقى مثـلا .. فإننـى أتمنى أن يحبها معى كل الناس . عندمـا أكون تاجرا صغيرا مثلا ويصبح ابنى أستاذا فى الجامعة .. فإننى لن أشعر بمنافسة منه .. بل إننى سأكون مسرورا وفخورا به لأن النجاح امتداد لكل من ساهم فيه .

❑❑❑

توقفـت عنـد الجملة الأخيرة . إنها فى مكانها جدا . فى الواقع هى تنطبق تماما على الدكتور ابراهيم نفسه . لقد قلت قبل ذلك إن عددا كبيرا من الشباب البارزين فى بلدنا الآن أخذوا فرصتهم الأولى منه . هنا بالضبط نكتشف أن ابراهيم حلمى عبد الرحمن هو رجل .. بأثر رجعى . إنه رجل اليوم .. بما حققه لنفسـه : أكبر منصب يتولاه مصرى فى منظمة دولية . وهو رجل بما حققه لغيره : إناس ساعدهم على شق الطريق فأصبح من بينهم علماء ووزراء . وهو رجل منذ التاريخ الذى اكتشفهم فيه عند نقطة مبكرة تماما من حياتهم .

ولعل الشـىء الذى سـاعده على ذلك هو البيئة التى تربى فيها والمجالات التى عمل بهـا . لقـد ولد فى قرية «كفر الولجا» بمنيا القمح (محافظة الشـرقية) : بيئة قروية تماما بعيدا عن نفاق القاهرة . ولقد عاش الطفل واحدا ضمن اثنا عشر أخا وأختا : عائلة عادية

بمقاييس تلك الأيام . ثم حصل الشاب على بكالوريوس الفلك من كلية علوم جامعة القاهرة (١٩٣٨) بتقدير الامتياز : مؤشـر مبكر لإجتهاده . بعدها حصل الرجل على الدكتوراه فى الفلـك من جامعة «أدنـبره» ببريطانيا . احتكاك مبكر بحضـارة مختلفة . إلى هنا وحياته تسير بأنغام بطيئة تتجه نحو السرعة : مدرس بكلية العلوم جامعة القاهرة . أستاذ مساعد . انتداب فى مجلس الوزراء بعد قيام الثورة . سـكرتير لمجلس الوزراء (١٩٥٤). سـكرتير للهيئـة العليـا للتخطيط (١٩٥٤) حينما دخلت كلمة التخطيـط الاقتصادى لأول مرة فى القاموس السياسـى المصرى الجديد . سـكرتير عام لمؤسسة الطاقة الذرية منذ أنشأها جمال عبد الناصر (١٩٥٥) تنبها لمجال علمى جديد يجب أن تلحق به مصر . سـكرتير للجنة التخطيط القومى (١٩٥٥) . سكرتير للمجلس الأعلى للعلوم(١٩٥٦) . وكيل لوزارة التخطيط .. مدير لمعهد التخطيط و ... لا ... إن القائمة طويلة طويلة . يكفى أنه منذ سـنة ١٩٦٣ اختارته هيئة الأمم المتحدة ليكون سـكرتيرا عاما مسـاعدا لها لشـئون التنمية الصناعية . وفى يناير ١٩٦٧ أنشئت منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية فأصبح مديرا لها . إن مقر المنظمة الآن هو مدينة فيينا عاصمة النمسـا . ولكن الدكتور ابراهيم يسـافر إلى نيويورك من وقت لآخر ليناقش تقارير نشاط المنظمة مع أوثانت السكرتير العام للأمم المتحدة . وأنا ألتقى به الآن فى إحدى هذه المرات . السـاعة السابعة مساء . كل موظفى الأمم المتحدة انصرفوا بعـد انتهاء مواعيد عملهم . لايعمل فى المبنى الآن سـوى مجلس الأمن . والمكتب الوحيد المفتوح هو مكتب الدكتور ابراهيم .

داخل المكتب نستأنف الحديث : أنت عملت فى مجالات كثيرة .. من الفلك إلى الذرة إلى الصناعة إلى التخطيط إلى الإدارة .. ماذا يربط هذا كله ؟

– المنطق العلمى .

– ما هو المنطق العلمى ؟

– إنه مقدمات تؤدى إلى نتائج . الارتباط بين النتائج يتطلب التجربة . تعدد التجارب يعطيك نظرية . النظرية تحتاج دائما إلى تأكد .

– ما هو التفكير العلمى ؟

– إنه التفكير الذى لا يصل إلى نتيجة إلا بعد التجربة والتحقيق .

– هل يوجد مجتمع علمي ومجتمع غير علمي ؟

– ليس بالضبط .

– إذن سأغير السؤال : هل يوجد مجتمع مشجع للعلم ومجتمع غير مشجع له ؟

– طبعا . المجتمع المشـجع للعلم هو الذى يعطى للبحث العلمى قيمة كبرى ويحصل فيه العلماء على أضخم احترام اجتماعى . مثل هذا المجتمع يخلق العلم وينميه ويسـتفيد منه . وعلى العكس من ذلك مجتمع يتحدث عن العلم ولا يمارسه . يعلن احترامه للخبراء ولكن يبتعد عنهم . هذا مجتمع غير مشجع للعلم .

– تقصد مجتمع محصن ضد العلم ؟

– إنه محصن ضد المستقبل ، وليس ضد العلم فقط .

– ما زلت أسأل : ماذا يربط أيضا بين مجالات عملك السابقة غير المنطق العلمى ؟

– التخطيـط يربـط بينها . العلم يعتمد على تخطيـط . الاقتصاد يعتمد على تخطيط . الإدارة تعتمد على تخطيط .

– كم عدد أولادك ؟

– بنت واحدة .

– صدفة .. أو تخطيط ؟

– صدفة .. على ما أعتقد .

□□□

● إنه يعتقد ذلك . ربما . ولكن الرجل لم يترك أشـياء كثيرة فى حياته للصدفة . لقد قال منـذ دقائق إنه يفضل أن يعيش حياته عند الحد الأدنى . قليل من كل شـىء .. ولكنه مايزال مقبولا . هذا صحيح . إنه يقول كلمة « لا » لنفسـه كثيرا قبل أن يقولها لغيره . لقد عاش حياته بالقاهرة فى شقة متواضعة بإيجار شهرى تسعة جنيهات . كان يستطيع دائما أن يغيرها بشقة أفخم فى حى الزمالك أو مصر الجديدة مثلا . لكن : لا . مازالت الشـقة هى نفسها فى حى المنيل . لايدخن . منتظم الصيام والصلاة . يقرأ كثيرا ويكتب أقل . السبب صحى . لا سينما . لا تليفزيون . لاوقت .. حتى فى فيينا أو نيويورك .

وأسأله : هل أنت سعيد ؟

– ربما ..

– لماذا «ربما».؟

– لأن السعادة ومضات . ولكن هناك شيء آخر هو الرضا .. أو الارتياح . إنه يختلف عن السعادة . الرضا معناه أنك تقبل الحياة على ما هى عليه .

قلت : هذا استسلام وليس رضا ..

أجاب : ليس دائما . فأحيانا يكون السخط على الحياة مرضيا لك.

❑❑❑

ونعود خلفا . ولا أدرى لماذا أحرص على مناقشة الفجوة بين الجيل القديم والجيل الجديد مع الدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن بالذات . الرجل يعيش الآن فى مجتمع مختلف . وبرغم ماضيه العريض فإن اسمه لايعيش معنا دائما . شيء طبيعى بقدر ما هو متناقض . طبيعى لأننا نجد – بحكم الخبرة – أن البرميل الفارغ صوته أعلى من البرميل المليء .

والدكتور ابراهيم رجل مليء ، جسما وعقلا . ولذلك أسأله : أرجو أن تعتبر نفسك مؤقتا من الجيل القديم . كيف إذن ترى حدود المشكلة بيننا وبينكم ؟

– الحدود واضحة . انكم – كجيل جديد – قد أعلنتم تمردكم علينا واستياءكم منا ، ومعكم فى ذلك الحق والقدرة . لقد حققنا لكم الشيء الكثير . ومع ذلك فأنتم تقابلونه بجحود كامل . حتى فى هذا ربما يكون معكم الحق أيضا ، لأننا صنعنا كل شيء بغيركم . لأننا حرصنا على أن نقوم ببطولة المسرحية ، واخترنا لكم مقاعد المتفرجين .

قلت : آسف لمقاطعتك ولكنك الآن تعزف على وتر مؤلم . المشكلة فعلا هى أن الجيل القديم يحدثنا دائما عن كم كان أمسه قاسيا ويومه مناضلا وغده مشرقا . بيد أن يومهم ذلك قد أصبح أمسنا نحن ، وغدهم أصبح يومنا . لقد اختاروا معاركهم.. وحاربوها . وعلينا نحن أن نختار معاركنا وأن نحارب يومنا . هذا هو حتى ما أحسسته جاريا فى أمريكا وفرنسا وألمانيا ومجتمعات أخرى غيرنا .

وعاد الرجل إلى الحديث : مع ذلك فإننى أرى أن الجيل القديم هو الذى يجب أن يساعد الجيل الجديد على الوصول إلى قرار . المشكلة هى أن الجيل الجديد بدأ يعشق التمرد على القيم السائدة بغير أن يحدد بالضبط ما هى القيم البديلة . لايهم ..

– إذن .. لمن المستقبل ؟

– المستقبل واضح . المستقبل دائما هو لكل جيل جديد . إن التمرد على القيم السائدة قد يبدو لفترة مؤقتة كما لو كان مجرد هدم للأمر الواقع أو حتى مجرد اندفاع لإثبات الوجود . لكن كل القيم الجديدة بدت هكذا فى البداية .

– .. وإلى أن توجد القيم الجديدة .. ما هو الحل ؟

– لا أرى حـــلا . أرى فقـــط فترة حتمية من الضياع قد تطول أو تقصر . الضياع هنا هو غير الإنحلال .. فما أسهل الإتهام . انه ضياع مؤقت حتى تتضح القيم الجديدة البديلة . أرجو أن تكون قيما أفضل .

– إذن .. ما هى الخلاصة ؟

– الخلاصة هى اننى متفائل ولست متشائما .. مع العلم بأن استمرار الخلخلة يمكن أن يؤدى إلى عواقب خطيرة . إن الإطار الذى تتم فيه الخلخلة أكبر كثيرا مما كان مألوفا . كل شـــىء الآن محل مناقشة ومراجعة وتساؤل .كل شىء يعاد النظر فيه .. ابتداء من السياسة الى الاقتصاد إلى العلوم الاجتماعية إلى العادات والتقاليد ..

❑❑❑

قلت للدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن : تكلمنا حتى الآن عن كل شىء تقريبا ما عدا مسألة أساسية .. عملك فى الأمم المتحدة ودور منظمة التنمية الصناعية التى ترأسها ..

رد الرجل : أنت الذى تختار موضوعات المناقشة ولست أنا ..

قلت : حسنا . بالنسبة لمنظمة التنمية الصناعية فأنا أعلم أن مقرها الرئيسى فى مدينة فيينا عاصمة النمسا ، وأنها أقيمت منذ أول يناير ١٩٦٧ كمنظمة تابعة لهيئة الأمم المتحدة هدفهـــا تنمية التعاون الصناعى والاقتصادى بين الـــدول الأعضاء خصوصا الدول النامية ، وأنها تنفق ســـنويا عشـــرة ملايين دولار كمعونات فنية بالإضافة إلى عشـــرة ملايين أخرى تمثل ميزانيتها . وأعلم كذلك أن دولا نامية عديدة قد لمســـت بالفعل أهمية المعونات التى تتلقاهـــا مـــن المنظمة خصوصا فى مجال الخبرة الفنية (٤٠٠/٥٠٠ خبير) . فهل يكفى هذا بالنسبة للمنظمة ؟

– يكفـــى .. إلا قليـــلا . وما أود إضافته بســـيط ولكن جوهـــرى . فمنظمة الأمم المتحدة نشأت أساسا باتفاق بين الدول الخارجة من الحرب العالمية الثانية منتصرة وأعطت نفسها

بتلك الصفة امتياز المقاعد الخمس دائمة العضوية فى مجلس الأمن الدولى . مصر كانت نظريا من بين المدعوين من الولايات المتحدة فى المؤتمر التأسيسى فى سنة ١٩٤٥ للتصديق على ميثاق الأمم المتحدة . لكن عمليا استمرت الأمم المتحدة ناديا خاصا للقوى الكبرى . الجديد فى الموضوع هو أن مصر فى طبعتها الجديدة ورؤيتها المستجدة لدورها خصوصا بعد ١٩٥٦ ثم دورها الملموس فى المشاركة بقيادة كتلة عدم الانحياز – التى هى فى جوهرها الدول النامية – فرضت على الخمسة الكبار بالمنظمة قبول توسيع عضوية مجلس الأمن الدولى ليصبح الأعضاء غير الدائمين عشرة بدلا من ستة . وشىء آخر : قامت الأمم المتحدة أساسا للتعامل مع الواقع الدولى سياسيا . الجديد هو رؤية العالم اقتصاديا وبالتالى مسايرة الأمم المتحدة لهذا المنظور الجديد . الشىء الثالث هو أننى موجود هنا فى مقعدى هذا ومكتبى هذا لأن مصر هى التى رشحتنى لهذا المنصب . ربما يرى البعض أننى هنا لأننى أستحق . ممكن . لكننى لم أكن لأوجد هنا أصلا لولا أن مصر أصبحت دوليا تستحق .

– إذن أسألك : بعد سنواتك الأخيرة من العمل فى المجالات الدولية .. ما هو تقييمك لجدوى العمل الدولى المشترك ، خصوصا فى إطار الأمم المتحدة ؟

دقائق من التفكير ثم أجاب الرجل : بالنسبة للأمم المتحدة فإنها كمنظمة تمثل ظاهرة حديثة نسبيا فى العلاقات الدولية . دورها السياسى معروف . دورها الاقتصادى محدود . دورها فى تشجيع الصناعة مستجد وبإلحاح – حتى لا أقول بضغط – من الدول النامية وبالمقدمة مصر . المهم هنا نقطتان . أولا : أن هذا الدور يبشر بالأمل برغم كل الصعوبات القائمة حاليا فى العلاقات الدولية . وثانيا : هذا الدور تتزايد أهميته يوما بعد يوم .لكن ما تزال هناك نقطة أخرى هامة : أن الأمم المتحدة ليست حكومة عالمية ، بمعنى أنها لا تملك سلطة اتخاذ القرارات بمفردها ، أو سلطة تنفيذ القرارات التى تتخذها . ففى مجال الصناعة مثلا ليس أمامنا كأمم متحدة سوى تقديم الخبرة الفنية للدول النامية . أما عبء التنفيذ ، وعبء النجاح .. فيظلان من مسئولية الدول النامية نفسها .

❑❑❑

.. فعلا .

من المهم تماما أن نعرف الظروف الحقيقية لمنظمة الأمم المتحدة . إن طاغور – الشاعر الهندى البارز الراحل – كانت له أبيات شعرية تقول : يا قلبى اسمع ... صوت الرعد

فى السحاب ... يا قلبى كن شجاعا ، واقتحم ... واذهب إلى المجهول ..

أن داج همرشـولد السكرتير العام الراحل للأمم المتحدة سمع تلك الأبيات ذات مرة فى سـنة ١٩٥٥ . يومها قال همرشـولد : «إننى أعتقد أن هذه الأبيات تصلح لأن تكون شعارا لهذه المغامرة التى تسـمى .. الأمم المتحدة . إننا قد نسـمع أحيانا صوت السـحاب منذرا بالـبرق والرعـد ، ولكن يجب ألا نفتقد أبدا الشـجاعة التى تجعلنـا نقتحم ..ونرحل إلى المجهول» .

لقد رحل همرشولد . ولم تتم اللوحة . لكن أبيات طاغور ماتزال صادقة على الاثنين : الأمم المتحدة .. والجيل الجديد . كلاهما يخوض آفاقا جديدة لم يسبقهما إليه أحد .

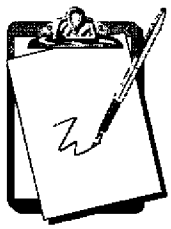

مندوبنا .. فى القرن ال ٢١

... ...
... ...
... ...
... ...

السطور – البيضاء – السابقة .. هى كل ما خرجت به من جلساتى الأربع الأولى مع هذا الرجل . أما المقابلة الخامسة .. فكانت شيئا آخر .

يقول الرجل : «العلم فى مجتمعنا أصيب بالصدأ. هذا الصدأ له سبب : إننا فقدنا اتصالنا بالتيار العلمى فى العالم . كأن العالم يسير أماما .. ونحن محلك سر . هناك سبب آخر : نحن لا نحترم تقاليد العلم . والعلم – يا أخى – كالتصوف . كالصلاة . هل تستطيع أن تصلى قبل أن تخلع حذاءك ؟ حسنا . نفس المسألة فى العلم» .

ويقول الرجل أيضا : «إذا استمر التعليم بأسلوبه الحالى فى الجامعات ، فلا أتوقع علماء يظهرون فى الجيل الجديد. إن العلم هو أحد فروع المعرفة التى لابد فيها من الوراثة . لابد من مدارس علمية . إنها المفتاح إلى النهضة العلمية الصحيحة . والتقدم العلمى كالتجديف ضد التيار .. مالم تتقدم .. تتأخر.وعندما تختفى المدارس العلمية والتقاليد العلمية .. ينتحر العلم .

«لا أعتقد أن المشكلة الأساسية فى التخلف العلمى عندنا هى نقص الأموال . إنها طبعا مشكلة . ولكن الأهم منها اختفاء الأسلوب العلمى . اختفاء التقاليد العلمية .هل ترى مكتبى الضخم هذا؟ وهذه هى عقدة العلم عندنا . إنه يبحث عن الواجهة . عن الديكور.. قبل أن يبحث عن المضمون ..

● جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٦٨/٢/١٧ .

«لاتقل عنى إننى عالم كبير . لا يا أخى . فكلما ازداد الإنسان علما اكتشف جهله.الله وحده هو العالم. والعلم الذى نمارسه مثل مياه البحر المالحة.. كلما شربت منها أكثر .. شعرت بالعطش أكثر ..

«أنا يا أخى تربيت تربية عادية جدا. فقيرة جدا.توفى والدى وعمرى تسع سنوات . ربانى أخى الأكبر الدكتور حسن . كان الأول على كلية الطب.تخرج فى الكلية وعمل طبيبا بالأرياف لينفق علينا. ربانى أخى صغيرا .وقد أصبح عمرى الآن خمسين سنة . ولكننى ما زلت حتى الآن أقبل يده كلما قابلته.. وأنا لا أتميز بشىء يا أخى عن باقى خلق الله. أنا أقول فقط مع رسول الله : أدبنى ربى فأحسن تأديبى».

❑❑❑

ولكن .. مهلا .. مهلا ..

لقد تحدثنا إلى الرجل قبل أن نتعرف عليه .آسف . إن معظمنا قد لايعرف الرجل. هذه غلطتنا نحن وليست غلطته هو . فكل الدوائر العلمية فى العالم تعرفه . يعرفونه عالما ومحاضرا وأستاذا .

الرجل هو الدكتور أحمد مصطفى .عمره تسع وأربعون سنة ونصف سنة . وهو الآن مدير المركز القومى للبحوث بالقاهرة . كان سابقا (حتى ثلاثة أشهر فقط) رئيسا لقسم الكيمياء العضوية بكلية العلوم فى جامعة القاهرة.

والرجل له مؤلفات كثيرة ،من بينها مثلا ثلاثة كتب علمية يجرى الآن تدريسها فى جامعات الولايات المتحدة واليابان وبريطانيا وألمانيا الغربية وفرنسا وتشيكوسلوفاكيا. والرجل فى جيبه الآن دعوات لإلقاء محاضرات علمية فى جامعات البرازيل والهند واليابان .وهو عندما يسافر إلى الولايات المتحدة مثلا (كما حدث فعلا فى شهر مايو الماضى) يطلبون منه إلقاء محاضرات علمية على كبار أساتذة الجامعات ومراكز البحوث هناك . والأجر الذى يصرفونه له هو ٢٥٠٠ دولار فى الشهر .

وعلى فكرة :هذا المبلغ يعادل مرتب شهر واحد لثلاثة وستين موظفا بالحكومة على الدرجة السابعة . أو يساوى مرتب تسعة شهور لرئيس مجلس الإدارة فى معظم شركات القطاع العام .

الرجـــل إذن عالم مشـــهور تعرف قـــدره كل جامعات العالم . ونحـــن الآن فى طريقنا للتعرف عليه .

❑❑❑

رجل مرح وجاد.شعره أسود سنجابى .. ولكنه بدأ فى السنوات الأخيرة ينسحب من مقدمة رأســـه متراجعا إلى الخلف .صوته العالى نسبيا يجذب الانتباه، إنه صوت معبر بما يكفى لكى تنصت له.جســـمه متين.طويل.وجهه ملىء بالزوايا الحادة القاطعة دليل علي التصميم . عيناه حادتان كعينى صقر موضوعتين خلف نظارة طبية .الكلمات تخرج من فمه سريعة متلاحقة ، تخلق لديك إحساسا بأن صاحبها يجيد الحديث. ولكن تعبيرات وجهه الحية تسير فى اتجاه عكســـى . فهى تخلق لديك إحساســـا بأنه يجيد الصمت. والواقع أن الرجل هو الاثنان معا. فهو كمعظم الصامتين .. تخرج الكلمات من فمه كأنما ســـبق تخزينها فى حصالة. وهو كمعظم المتحدثين الممتعين : تدخل الكلمات إلى أذنيه فتظل بداخلها كأنما دخلت بئرا من الصمغ .

والحديث معه عن العلم . والعلم له تعريفات كثيرة .أفلاطون مثلا كان يقول : العلم هو الإدراك الخارجى. ويقول سبنســـر: العلم هو المعرفة المنظمة.ويقول برتراند راســـل: عناصر العلم ثلاثة.. تفكير استطلاعى .. واستنتاج مبدئى.. ثم تجريب عملى .

أمـــا الدكتور أحمد مصطفى فيقول: «فى العلم – كما فى الحياة – الغنى يزداد غنى .. والفقير يزداد فقرا.هذه مشـــكلة . فالذين بدأوا الســـباق متأخرين يواجهون كل يوم مشاكل اللحاق بمن بدأ السباق مبكرا . والوصف الأول ينطبق على الدول النامية جميعا» .

قلت : تتكلم عن الدول النامية . ما أسباب تخلفها العلمى فى رأيك ؟

والرجـــل يجيـــب : أولا .. الأولويات.فالـــدول النامية تحارب التخلـــف العلمى على جبهـــات طويلـــة متعددة تتزايد كل يوم .إنها تريد كل شـــىء .. وفورا . وفى حربها على التخلـــف العلمـــى أمامها موارد محدودة ووقت ضيق . هذا يســـتدعى الإتفـــاق مقدما على أولويـــات للجبهات التـــى يتركز فيها البحـــث العلمى، لأن توزيع البحـــث العلمى على جبهات كثيرة يشتت الموارد ويضعف النتائج المنتظرة.

«وهنا ينبغى أن نفرق بين نوعين من المشـــاكل . مشـــاكل رئيســـية .. وهى التى تتطلب جهـــودا مركزة على المســـتوى القومـــى للدولة. ثم مشـــاكل الحياة اليوميـــة ، التى تتمثل

فيما قابله كل مصنع مثلا من مشاكل . المشاكل الأخيرة تحتاج أيضا إلى بحث علمى، وإلى حوافز تدفع المسئولين عن المصانع لتنمية البحث العلمى .

«أما المشاكل الرئيسية فيجب أن تكون قليلة العدد ويتم اختيارها على أساس تقدير الأولويات . وما يزال تقدير أولويات المشاكل الرئيسية محل نقاش حتى الآن فى بلد نام كبلدنا نحن مثلا . فنحن نختلف حول من أين نبدأ.. بالرغم من أننا بلد نام .

«نقطة أخرى : أن الهواة هم أول من يجنون على البحث العلمى . إن ترك البحث العلمى فى يد الهواة هو عملية قتل له يرتكبها المجتمع .. وانتحار يرتكبه العلم . وليس فى العالم عصا سحرية تجعل من رجل غير رجال العلم الحديث .. رجلا من رجاله أو متخصصا فيه . هذا يقودنا إلى نقطة أخرى . أنا أفضل أن نؤجل كلمة البحث العلمى ونتحدث أولا عن الأسلوب العلمى . إن كل مجتمع يحتاج أولا إلى الإيمان بالأسلوب العلمى قبل إيمانه بالبحث العلمى . فبالأسلوب العلمى نستطيع أن نوفر المناخ لإنجاب علماء على مستوى دولى» .

□□□

أه .. المستوى الدولى .

اننا – ومعنا كل الدول النامية تقريبا ـ فشلنا حتى الآن فى أن نقدم إلى العالم .. علماء على مستوى دولى . أبرز مثل لذلك جائزة نوبل فى العلوم مثلا . لقد قرأت كتابا صدر فى الشهر الماضى يحلل شخصيات العلماء الذين حصلوا على جائزة نوبل فى العلوم خلال السبعين سنة الماضية .

والكتاب يكشف عن ظاهرة خارقة تقول : إن متابعة تاريخ الحائزين على الجائزة تكشف عن وجود «شجرة أسرة » فى العلوم يتفرع منها معظم الحائزين على جائزة نوبل . فهناك ١٧ عالما على الأقل من الحاصلين على الجائزة يرتبطون فى النهاية بأستاذ واحد عاش منذ خمسة أجيال .. هو العالم الألمانى الكيميائى فون بيير . ولو شملنا علماء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الذين كان يمكن أن يكسبوا الجائزة بالتأكيد لو كانت موجودة حينئذ .. فإن نفس شجرة الأسرة هذه يمكن أن تشمل تسعة أجيال من العلماء . إن هذه الأجيال التسعة تحكمها علاقة واحدة هى علاقة (الأستاذ / الطالب). فكلها بدأت باستاذ

واحد ربى تلاميذ علماء .. ثم قام هذا الجيل بتربية جيل جديد .. وهكذا .. حتى الآن . وكانت النتيجة ... انهم جميعا حصلوا على جائزة نوبل .

□□□

وأسأل الآن الدكتور أحمد مصطفى :ما رأيك فى هذا الكلام ؟

وهـو يقول : صحيـح مائة فى المائة . إن الأسـتاذ البارز والتلميـذ النابغة يميلان إلى اختيار بعضهما دائما. وظاهرة تسلسـل الأجيال العلمية من بعضها البعض نجدها منتشـرة بالذات فى المدرسـة العلمية الألمانية . ولو تابعـت تاريخ العلماء الذين حصلوا على جائزة نوبـل فـى العلوم فسـتلمس أن اتصالهم المبكر بالأسـاتذة البارزين كان لـه أكبر الأثر فى مستواهم العلمى .

قلت : هل لمست هذه الظاهرة بنفسك أثناء تلمذتك على أيدى العلماء الألمان ؟

أجاب الرجل بحسم : نعم . ان أحد أساتذتى مثلا هو الكسندر شمبرج ، أستاذ الكيمياء العضوية فى جامعة برلين التكنولوجية. ان عمره الآن خمس وسبعون سنة . ومع ذلك فما زال يمر على تلامذته فى الساعة السابعة صباحا كل يوم .. مهما بلغت برودة الجو .

قلت : هل تتميز المدرسة الألمانية فى العلم عن غيرها ؟

أجاب : نعم . المدرسـة الألمانية تؤمن بالتجربة أولا ..ومنها تسـتخرج الظواهر العلمية بعـد ذلك . أما المدرسـة الإنجليزيـة مثلا فهى تؤمن بالعكس .. تحـدد الظواهر مقدما ثم تجربها عمليا بعد ذلك .

قلت : وما هو الطابع المشترك بين المدرستين ؟

قال: احترام التقاليد العلمية . فالعلم له تقاليد. هذه التقاليد لها طابع دولى . ولا يمكن أن تكون عالما بغير تقاليد . فالعلم نوع من التصوف . أو قل العلم كالصلاة . هل تسـتطيع أن تصلى قبل أن تخلع حذاءك مثلا؟ نفس المسألة فى العلم .

قلت : من فى رجال العلم فى مصر يؤمنون بالتقاليد العلمية ؟

قـال : عنـدك مثلان بارزان لذلك . الدكتور أحمد زكى ، والدكتور مصطفى مشـرفه . وما بعدهما نتيجة لهما .

قلت منتقلا إلى مجال جديد : هل هناك فردية فى العلم ؟

أجـاب الرجـل : كان العلم فرديا فى البداية . ولكن الآن انتهى عصر المخترع الفرد . فالعلـم اليوم أصبح متقدما ومتطـورا إلى الدرجة التى أصبح يتطلب فيها عمرا كاملا لمجرد متابعة مايجرى . إننا الآن فى عصر الاختراع الجماعى . بمعنى أن العمل الجماعى أصبح الآن شرطا لتحقيق أى نتائج علمية هامة . وهذا التطور لم يتم على حساب الفرد . فالفرد لـه أهميتـه القصوى فى النمو العلمى . فالعلم لاينمو مثلا فى مجتمع من العبيد ، ولا ينمو مثلا فى مجتمع من الهواة» .

❑❑❑

.. والكلام معقول .

أن الفن هو «أنا» . أما العلم فهو «نحن» . فالفن شخصى ، بينما العلم موضوعى . الفن فردى ، بينما العلم جماعى .الكلام معقول إذن .. والتحفظات عليه معقولة أيضا .

فلو أن مائة من الرجال – مائة فقط – كانوا قد قتلوا فى طفولتهم منذ مائتين وخمسين سنة .. لما كنا نعيش اليوم فى هذا العصر الذى نعيش فيه الآن . فبغير هؤلاء .. كنا سنعيش اليـوم بغير سـيارات نركبها ولا طائـرات نحلق بها ولا تليفونات نتكلـم فيها ولا كهرباء نستضىء بها ولا تليفزيونات نشاهدها ولا أفلام نسجلها و .. لاصحف نقرأها.

والصفة الوحيدة التى يحملها هؤلاء الرجال هى أنهم : علماء . وتحت هذه الكلمة مائة خط .. وخط .

فنحن الآن فى عصر العلم . وقد وصلت إلينا هذه الأشياء بعد طريق شاق افتتحه رجال العلم منذ حوالى ٣٠٠ سـنة . فالعلم ، كما يقول برتراند راسـل : «لم يصبح العلم قوة هامة إلا منذ جاليليو». ولم يصبح العلم عنصرا هاما فى تحديد شكل الحياة اليومية للناس عامة إلا فى أثناء المائة وخمسـين سـنة الأخيرة . لقد حدثت فى تلك الفترة القصيرة تغييرات عظمـى لم يحـدث مثلها منذ أيام المصريين القدماء . ان مائة سـنة من العلم كان لها تأثير ضخم عجزت عنه خمسـة آلاف سـنة من ثقافة ما قبل العلم . وسـوف يستمر العلم لفترة طويلـة قادمة هو المقياس الحديث للحضارة والتقـدم . ولذلك فنحن الآن فى محاولة لفهم العلم .. بعد أن عجز العلم عن فهمنا .

أقـول للدكتـور أحمد مصطفى : هل من الصدفة مثـلا أن نجد أن أكثر من نالوا جائزة نوبل فى الكيمياء كانوا من الألمان ؟ وأن ألمانيا هى التى سبقت العالم إلى إنتاج البترول من الفحم ، والمطاط الصناعى ؟

والرجل يجيب : لا .. ليس هذا الأمر صدفة . فالعلم لاينمو بالمصادفات. الأمر ببساطة له سببان .أولهما أن الأسلوب الألماني يؤمن جدا بضرورة المدارس العلمية . وكل أستاذ عظيم هناك له مجموعة من التلاميذ يكونون مدرسة له. وهذا الطريق هو المفتاح الحقيقى لأى نهضة علمية. أما السبب الثانى فهو الجامعات الألمانية . ففى العهد الذهبى الألمانى – هو الممتد بين سنتى ١٨٥٠ و ١٩٣٣ – كانت المنافسة العلمية قائمة فى ألمانيا بين أكثر من عشر جامعات ألمانية . وهذا هو السبب الأول والأهم للنهضة العلمية فى أى مجتمع .

قلت : وصلنا للمهم .. لماذا أصبحت الجامعات عندنا برجا عاجيا كما يقولون ؟

أجاب الرجل بحدة : أه .. أنت إذن تسمى الجامعات عندنا أبراجا عاجية ؟

قلت : لست أنا على أى حال مخترع هذه التسمية. ومع ذلك فلسنا هنا بصدد متابعة الأصل التاريخى للكلمة ..

قال أحمد مصطفى : مهما يكن .. أنا يا أخى كنت حتى ثلاثة أشهر سابقة أستاذا بالجامعة. فلتكن الجامعة برجا عاجيا . والخطأ يا أخى ليس فى الجامعات. هناك دائما نوع من المعاهد العلمية يكون حلقة الإتصال بين الجامعات ومشاكل المجتمع اليومية. هذه المعاهد هى التى «تترجم» البحوث العلمية الأكاديمية إلى واقع يجرى تطبيقه. ولقد فقدت الجامعات عندنا الكثير من رجالها لانتقالهم إلى العمل فى مجالات الصناعة. كان هذا ضروريا بالطبع ، ولكننا وجدنا أنه بعد فترة أصبحت لدينا لغتان. لغة الذين انتقلوا إلى التطبيق وآمنوا بعد خمس سنوات أو أكثر بأن هناك مشاكل فى حاجة إلى الأسلوب العلمى. ولغة الذين لم يلمسوا هذه المشاكل لبعدهم الفعلى والجغرافى عن موقع الإنتاج ، وانخراطهم فى مشاكل التعليم الجامعى وتطويره وممارستهم البحوث الأساسية. وعلى أى حال فأنا مؤمن بأن رسالة الجامعة فى البلاد النامية هى العلم للمجتمع.

قلت : ماهو الأهم فى نظرك .. الحصول على الدكتوراه أم النجاح فى بحث علمى تطبيقى ؟

قال : الدكتوراه هى الأخرى خطوة فى البحث التطبيقى .

قلت : مازال السؤال مطروحا .. أيهما أهم .. الدكتوراه أم البحث العلمى ؟

أجاب الدكتور أحمد مصطفى : شوف .. الدرجات العلمية – كالدكتوراه – هى دليل رسمى بوجود قدر معين من المعرفة لدى الشخص ، ولكنها ليست الدليل الوحيد.

فـى الجامعـات الإنجليزية مثـلا هناك مجموعة كبيرة من الأسـاتذة لايحملـون أكثر من البكالوريوس .. ومع ذلك فهم أعضاء فى الجمعية الملكية للعلوم هناك .

قلت : ماذا ينقص جامعاتنا فى رأيك ؟

أجاب : كثير .. لكن أهمها فى رأيى هو اختفاء التقاليد الجامعية .

قلت : لو اسـتمر التعليم الجامعى عندنا بأسـلوبه الحالى .. فهـل تتوقع وجود علماء نابغين فى الجيل الجديد ؟

قال : لا أعتقد. ولكن هذا الأمر يمكن تداركه فى المدى القصير بأسلوب واحد .. التركيز على الإهتمام بالدراسات العليا. إنها مقياس صالح لكفاءة الخطوة السابقة عليها وهى دراسة البكالوريوس. وهذا أيضا علاج مؤقت .

❑❑❑

ونستريح قليلا ..

فلا أعتقد أننا تعرفنا تماما إلى الرجل الذى نجلس معه . وهناك تفاصيل كثيرة لايسمح لنفسـه بأن يرددها. هناك مثلا الولاء الشـديد من هذا الرجل للعلم. وهو يصمم وقته اليومى ليسـاعده فى تحقيق هذه المهمة . إنه يسـتيقظ يوميا فى الخامسة والنصف صباحا. صلاة الفجر. ثم قراءات وأبحاث علمية . الإفطار فى السابعة . عودة إلى القراءة حتى التاسعة . من التاسـعة إلى الرابعة عصرا عمل . سـابقا فى الجامعة والآن فى مركز البحوث . الغداء فى الخامسـة. جلسـات علمية فى منزله مع طلبة من الخامسة عصرا حتى التاسعة مساء. ثم النوم. وفى اليوم التالى تبدأ الدائرة من جديد .

والرجل حصل على جائزة الدولة مرتين . فى المرة الأولى (سـنة ١٩٤٨) طلب تحويل الجائـزة إلى بعثة سـفر فى الخـارج. المرة الثانية فى سـنة ١٩٥٢. الجائزتـان كانتا فى الكيميـاء العضوية التى تخصص فيها . مـرة ثالثة حصل على جائزة فولبرايت من أمريكا سـنة ١٩٥٥ . قبلها بسـنة دعته اليونيسـكو لإلقاء محاضرات فى جامعة اسطنبول بتركيا والجامعـة الأمريكية فى بـيروت. بعدها حتى الآن دعى لإلقـاء محاضرات فى جامعات الولايـات المتحـدة وألمانيا والمجر والهنـد. ودعى لمؤتمرات علمية فى الإتحاد السـوفيتى وتشيكوسلوفاكيا وكندا . إن الأسماء كثيرة فلا داعى للحصر .

والدكتور أحمد مصطفى لم يتزوج إلا في سنة ١٩٥٠ بعد أن أصبح عمره ٣٢ سنة. زوجته هى الدكتورة وفية عسكر وهى الآن أستاذة للكيمياء بكلية علوم جامعة القاهرة. إنها نفس تخصصه العلمى . السبب فى رأيه هو أن «الحياة الزوجية يجب أن تكون أيضا حياة منتجة هادفة».وله الآن بنت واحدة فى مرحلة تعادل المرحلة الإعدادية . انه لايساعدها فى المذاكرة ولكن «.. والدتها تساعدها أحيانا» . هو نفسه كان يعتمد على نفسه فى المذاكرة.. فلا دروس خصوصية ولا وساطات دراسية . آه .. نسيت : انه لايؤمن بالوساطة أبدا ولم يقبل الوساطة من أحد مطلقا .

والرجل أعصابه هادئة . لايثور إلا نادرا. خذ هذه الطريقة السهلة لإثارته: حاول أن تمس كرامة أستاذ جامعى زميل له . حاول أيضا أن تعرف منه قصة الذين كان له عليهم فضل علمى ثم طعنوه فى ظهره. أستطيع أن أعطيك أمثلة .. فهذا النوع منتشر بكثرة فى هذه الأيام. ولكن لاداعى لأن الرجل يقول «.. الله خير حافظ» حتى من الانتهازيين والوصوليين .

والرجل بعد ذلك له مدرسة علمية فى مصر. لقد نال ١٦٠ دارسا على يديه شهادات الماجستير والدكتوراه.

وأسأله الآن : ألا تندم على الوقت الذى قضيته مع تلاميذك؟

وهو يرد : مطلقا .. كيف أندم على ما أستمتع به؟

قلت له : لاتحاول أن تسألنى .. فسؤالى يتمشى مع الموضة هذه الأيام. ولكن .. دعنى أغير السؤال.. لماذا لم تسع إلى أى منصب رسمى طوال حياتك ؟

قال الرجل ضاحكا : يسعدنى أننى بقيت دائما أستاذا جامعيا. ان خلفى ٣٢ سنة من البحث العلمى . ولو بهرتنى المناصب – وكثيرا ما كان هذا ممكنا – فإننى لم أكن سأصبح الآن كما أنا: أحمد مصطفى .

قلت : ما الذى خرجت به من الـ ٣٢ سنة فى البحث العلمى ؟

قال : خرجت بشىء واحد.. وما أوتيتم من العلم إلا قليلا .

سألته : فقط ؟

قال : خرجت بشىء آخر .. علم الإنسان مالم يعلم .

قلت : إن كلامك (كالجمل السابقة) وتصرفاتك (كالحرص على صلاة الفجر حاضرا وصلاة الجمعة فى مسجد الحسين) توحى بأنك متدين. هل العلم يؤمن بالله ؟

أجاب الرجل بوجه تغطيه الدهشة : طبعا يا أخى. إن العلم إذا درسناه بتعمق كاف .. لوجدناه يثبت وجود الله ..

قلت : من هو العالم فى رأيك ؟

قال : العالم هو الله ..

قلت : طيب .. من هو رجل العلم ؟

أجاب : هو الشخص الذى .. كلما ازداد علما اكتشف جهله ..

سألته : ما أهم صفة تحرص عليها ؟

أجاب : التواضع العلمى بين طلبتى .. والاحترام المطلق لأساتذتى .

قلت : ما الذى تأخذه مقياسا لعملك ؟

قال : رأى طلبتى فى . فتلميذى هو مقياس نجاحى . وأنا أحس بأننى كبرت حجما كلما زاد تلميذى علما .

قلت : ما سبب نجاحك ؟

قال : أدبنى ربى .. فأحسن تأديبى .

قلت : متى تشعر بالسعادة ؟

أجاب : عندما أصلى .

❑❑❑

عودة إلى الجامعات . ولا أدرى سببا لهذه العودة سوى ما يقوله لنا التاريخ. فالتاريخ يقول لنا إن العلم الحديث بدأ فى الجامعات الإيطالية فى القرن الحادى عشر .. وظل منتعشا هناك إلى منتصف القرن السابع عشر .وازدهار العلم فى ألمانيا بدأ بنفس الطريقة : بدأ فى الجامعات الألمانية فى القرن التاسع عشر .

هذا عن التاريخ القديم نسبيا . أما فى التاريخ الحديث جدا فأمامنا دراسة أعدتها باحثة أمريكية تقول فيها إن أكثر من نصف الذين حصلوا على أرقى الشهادات العلمية فى أمريكا ..

تخرجـوا فى أربـع جامعات بالذات هى : هارفارد – كولومبيا – بيركلى – برنسـتون . ومعظم الذين حصلوا على جائزة نوبل من أمريكا فى العلوم يعملون فى الجامعات ، بينما فى بريطانيا هناك ١٢ من كل عشرين يعملون فى الجامعات .هذه نقطة .

· نقطة أخرى نستخرجها من المناقشات الحامية التى دارت فى بريطانيا منذ ثلاثة أشهر بصدد السياسـة العلمية هناك. لقد سـيطر على المناقشة سؤال رئيسـى : أيهما أفضل .. توزيع الموارد المالية الإضافية على كل الجامعات بالتساوى .. أم تركيزها فى عدد قليل من الجامعات تكون بمثابة مراكز للتفوق العلمى ؟ إن تاريخ الحاصلين على جائزة نوبل يثبت أن تركيز الموارد لخلق مراكز تفوق علمى هو الحل الفعال فى البحث العلمى .

وأسأل الآن الدكتور أحمد مصطفى : أيهما أفضل فى رأيك بالنسبة لنا .. توزيع مواردنا المحدودة على كل الجامعات بالتسـاوى .. أم تفضيـل جامعة أو جامعتين بالذات لتكونا مراكز للتفوق العلمى ؟

ويرد الرجل : إن الحل فى رأيى هو أن تكون عندنا ميزانية بحوث ، وليست ميزانية جامعات أو مبان أو أشخاص . هذا هو الحل الفعال.

قلت : أنت تعمل الآن مديرا للمركز القومى للبحوث . لن أسألك عنه ، فمازلت حديثا فيه . لكننى أسألك .. ما أهم ما يملكه هذا المركز ؟

أجاب الرجل بحسـم : الإنسـان .. الإنسـان عنـدى هنا هو أغلى مـا أملكه فى هذا المركز .

قلت : هل تعتقد أنك تستطيع أن تفعل شيئا فى هذا المركز ؟

أجاب : لست أنا الذى أستطيع . انهم ١٥٠٠ انسان فى هذا المركز هم الذين يستطيعون أن يفعلوا الكثير .

قلت : حسنا : كلمنى عن المركز إذن..

قال ضاحكا : أعتذر. لا أستطيع أن أحدثك عن المركز الآن .

سألته : إذن .. متى تستطيع ؟

أجاب : عندما نعمل شيئا يستحق الحديث .

ومرت لحظة صمت. ثم ضغط الرجل على جرس بجانبه قائلا لى .. ايه رأيك .. تشرب قهوة ؟

قلت له جامعا أوراقى : لقد شربت فعلا ..

سألنى : متى ؟

أجبته : شربت هذا الحوار . إنه قهوتى هذا الصباح .

❑❑❑

و ... لقد قلت فى بداية هذا المقال إننى لم أخرج بشىء من مقابلاتى الأربع الأولى مع هذا الرجل. فى الواقع أنا أراه منذ شـــهرين وبالفعل لم أكتب شـــيئا. ولكن .. أليس العلم هكذا : يحتاج إلى صبر طويل قبل أن يعطينا نتائج مشجعة ؟

لقد قلب العلم حياتنا رأسا على عقب . مثلا .. النجوم التى نشاهدها اليوم فى السماء ليلا . إنها نفس ما كان يشـــاهده الفلاح المصرى فى الســـماء منذ ألفى سنة . لكن السماء لم تعد هى نفســـها مطلقا. الآن أصبحنا نعرف النجوم فى الســـماء أكثر وأكثر وأكثر . أصبحنا أيضا نجهل عنها أقل وأقل واقل . والسبب فى كل ذلك : رجال العلم .

ونحن نعلم أنه من بين كل مائة عالم عرفتهم البشرية طوال تاريخها .. هناك ٩٥ عالما يعيشون فى عالمنا المعاصر الآن . فالعلم الحديث كان متأخرا فى وصوله .. مبكرا فى إظهار نتائجه .

وفى مصر .. نحن نبذل جهدا خارقا للحاق بعصر العلم . للحاق بالقرن العشرين .

و ...

الوحيد الذى يستطيع أن ينجز لنا هذه المهمة هو : رجل العلم . إنه مندوبنا فى القرن الحادى والعشرين .

رجل .. يخترع المستقبل

لا تستطيع مصر أن تقدم استقالتها من القرن العشرين . استقالة مرفوضة . (مع أننا فعلنا ذلك أحيانا بحسن نية) !

وما دام الأمر كذلك .. فإن المشكلة الملحة جدا هى أن نبنى فى مصر مجتمعا علميا . هذا شرط مبدئى لا نستطيع قبله أن نتفاهم مع عصرنا .

إلى هنا سنجد أنفسنا متفقين تماما على هذه الحقيقة .. شعار آخر من بين الشعارات . ثم يبرز سؤال : هل نحن مستعدون لدفع الثمن ـ ثمن إيماننا بالعلم أسلوبا لتفكيرنا وقيدا على تصرفاتنا ؟

هنا بالضبط – بالضبط – نبدأ فى الاختلاف .

العلم يتطلب أولا موهبة الشك . ونحن نحتفظ فى مجتمعنا بمجموعة ضخمة من المقدسات والمسلمات والحقائق المطلقة المعفاة من النقد والمراجعة . والعلم يتطلب ألا نترك حياتنا للصدف والطوارئ .. فى حين أن مشكلتنا مع المستقبل هى أنه يصل عادة قبل أن نستعد له .

ونحن نجامل الفقر والمساواة كثيرا على حساب الكفاية ، بينما العلم يرفض أن يعطى للجائع سمكة . إنه يعلمه كيف يصطاد سمكة .

ونحن نربى أجيالنا الجديدة على الإيمان تماما – وجدا – بالأمر الواقع .. بينما العلم يبحث دائما عن المجهول . عن المستقبل .

وحينما تنمو بيننا فكرة جديدة .. فليس هذا لأننا شجعناها مقدما .. بل لأننا تنبهنا إلى قتلها بعد فوات الأوان . المسألة حظ وصدفة . تماما كالأسطورة الإغريقية القديمة التى

● جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٦٨/٩/٧ .

تحكى عن ثلاثة أمراء كانوا أثناء رحلاتهم المستمرة يكتشفون - بالعقل أو بالصدفة - كل الأشياء التى لم يبحثوا عنها أصلا . المسألة - باختصار - هى وصاية يفرضها حاضرنا على مستقبلنا . وتكون النتيجة : الحاضر يصاب بفقر الدم ، والمستقبل يموت بموافقة الأغلبية .

فى مثل هذا المناخ - آسف - فى مثل هذا الجو القاتل مقدما للأفكار الجديدة .. لايكون المجتمع وحده هو الخاسر ، بل الخسارة تمتد أحيانا لتشمل الإنسانية بأسرها .

إن أوضح وأضخم مثال فى التاريخ على ذلك هو اكتشاف الطاقة الذرية . لقد اكتشف أحد العلماء - عالم إيطالى - سر الطاقة الذرية قبل اكتشافها فعلا بخمس سنوات . حدث ذلك فى شهر مايو سنة ١٩٣٤ . ولكنه لم يجرؤ على إعلان اكتشافه . بل إنه - هو الآخر - لم يتنبه لما رآه .. بسبب سيطرة النظريات العلمية السائدة فى ذلك الوقت ، وكلها تقول إنه من المستحيل انشطار ذرة اليورانيوم .. وهو الذى جعل صنع القنبلة الذرية ممكنا.. وهو أيضا الذى فتح أمام الإنسانية أوسع أبواب تقدمها : الطاقة الذرية .

❑❑❑

وأسأل الآن الدكتور محمد عبد المقصود النادى ، رئيس قسم الطبيعة النووية بكلية علوم جامعة القاهرة : ما هى - أصلا - الطاقة الذرية ؟

ويرد الرجل : « عندك الشمس مثلا .. حولها مجموعة من الكواكب نسميها علميا المجموعة الشمسية . هناك جسم فى الوسط - كالشمس - هو النواة . وثمة مجموعة تدور حولها - كالكواكب - هى الإلكترونات . إن النواة هى التى تضم الطاقة الذرية . والذرة هى جزء صغير جدا لايمكن رؤيته بالعين المجردة . وهناك ميكروسكوب اليكترونى يكبر الأشياء مائة ألف مرة . ومع ذلك فإن قوة تكبير الميكروسكوب لاتكفى لرؤية الذرة . الطريقة الوحيدة لرؤيتها تكون بميكروسكوب يكبر الأشياء مليون مرة . إن هذه النواة (الذرة) عندما تصطدم بنواة أخرى سريعة الحركة ، تتولد منها طاقة كبيرة جدا تنطلق كالديناميت . هذه الطاقة هى الطاقة الذرية .. التى يمكن بعد ذلك استخدامها حربيا أو سلميا» .

قلت : لماذا اخترت أنت هذا التخصص الصعب ؟

أجاب الرجل (وهو الثانى فى الشرق الأوسط الذى يتخصص فى الطبيعة الذرية بعد المرحوم الدكتور مصطفى مشرفه) : «الحقيقة هى أننى عندما كنت طالبا فى المرحلة الثانوية كنت كثيرا ما أقرأ قراءات حرة . كنت أقرأ الصحف والمجلات وكتب الأدب . وكانت هناك مجلة شهرية وقتها اسمها (المقتطف) .. كانت تنشر مقالات علمية مترجمة ، تمتاز بالبساطة والسهولة . استهوتنى كثيرا تلك المقالات ، خصوصا ما كان منها يتناول نظرية النسبية والطاقة الذرية . وبمرور الوقت اكتشفت أنه قد تولد عندى شغف شديد بالموضوعات العلمية عموما ، وبموضوعات الطاقة الذرية بصفة خاصة . آه .. هناك مسألة أخرى . لقد كانت وزارة المعارف العمومية تجرى مسابقات سنوية فى القراءات الصيفية لطلبة المدارس . وكنت أجد لذة كبيرة فى الكتب العلمية التى تضمها تلك المسابقات .. ثم النجاح فى المسابقات نفسها . وبالطبع كنت أجد نفسى شغوفا أكثر بقراءة الكتب العلمية المبسطة . هذه هى بدايتى الأولى . بداية متواضعة كما ترى» .

❑❑❑

.. ولكننى لا أراها بداية متواضعة كما يقول الدكتور النادى . إننى أراها فقط بداية مبكرة . والحقيقة هى أننا لو درسنا تاريخ كبار العلماء فى العالم .. لوجدنا أن معظمهم بدأ حياته باهتمام متواضع جدا بالموضوعات والأفكار العلمية المبسطة . مثلا : عالم الذرة الألمانى شيزنبيرج كتب عن نفسه ذات مرة قائلا : «لاحظت فى نفسى اهتماما بالقراءات العلمية المبسطة منذ سن التاسعة . وفى سن الحادية عشرة أهدانى أخى الأكبر لعبة صغيرة تمتاز بأنها تحتاج إلى مجهود عقلى بسيط لممارستها . وكنت أجد لذة كبرى فى ممارسة تلك اللعبة . ثم بدأت أبحث عن لعبة أخرى تحتاج إلى مجهود عقلى أكبر . ثم أكبر .. فأكبر . إلى أن وجدتها .. الطاقة الذرية».

❑❑❑

وأسأل الآن الدكتور محمد عبد المقصود النادى . رجل فى الخمسين من عمره وعدة أشهر . أشيب الشعر ، اسمر الوجه . متردد الكلمات . متوتر الحركات . منتظم التفكير . سهل الحديث . طويل القامة . يحيط الجزء الأمامى من وجهه بحزام أسود اللون يحمل داثرتين شفافتين فى الوسط . حزام يرتكز على الجزء العلوى من أنفه . إنه : نظارته الطبية .

أقول : بعد أن تابعت معك بدايتك العلمية المبكرة .. أستطيع الآن أن أتابع خطواتك العلميـة التالية . أنت التحقت بكلية العلـوم لتحقيق أمنية صباك . ثم تخرجت فيها فى سنة ١٩٤٠ فى تخصص الطبيعة بتقدير الامتياز مع مرتبة الشرف الأولى . ثم أنت تابعت دراسـتك فحصلت على الماجيسـتير فى الطبيعة فى سنة ١٩٤٥ . بعدها بعثة إلى بريطانيا لدراسـة الطبيعـة الذرية .. حتـى حصلت على الدكتوراه فيها من جامعة لندن فى سـنة ١٩٤٨ ، فمدرسا بكلية العلوم بجامعة القاهرة عدة سنوات ثم أستاذا مساعدا ، فأستاذا ، فرئيسـا لقسـم الطبيعة النووية . إلى هنا أسـتطيع أن أقول إنك واحد ضمن ١٢٠٠ أسـتاذ تضمهم جامعاتنا .. فهل هذه البيانات دقيقة ؟

– نعم .

قلت : ولكنك فى الواقع سـرعان ما أثبت أنك رجل غير عادى . فأنت حصلت على الدكتـوراة مـرة ثانية هـذا العام فى الطبيعـة النووية . قبلها حصلت علـى جائزة الدولة التشـجيعية ثلاث مرات منذ سـنة ١٩٥٣ . وأثناء تلك الفترة فأنت عملت أستاذا بجامعة «ييل» الأمريكية لمدة سنة . ثم أصبحت لك سمعة دولية متميزة ، بحيث أصبحت بحوثك العلمية تنشر فى أكبر المجلات العلمية الدولية . ووجهت إليك الدعوات لإلقاء محاضرات عن أبحاثك فى الإتحاد السـوفييتى وبريطانيا وألمانيا الغربية وعدة دول أخرى لا أتذكرها الآن . هل هذا صحيح ؟ حسـنا . هنا بالضبط أريد أن أسـألك : هل تعتقد أننا وصلنا إلى المستوى الدولى فى بحوث الطبيعة الذرية ؟

أجاب الرجل بعد لحظات من التفكير : «أعتقد أننا أصبنا شـيئا من النجاح فى بعض موضوعـات الطاقة الذرية .. مثل موضـوع التفاعلات النووية . فالواقع ان الطبيعة النووية موضوع واسـع ومتطـور ، وبالرغم من ذلك فإن لنا أبحاثـا دولية فى موضوعات محددة . أبحاثا نشرت فى المجلات العلمية الدولية ونالت الكثير من التقدير».

قلت : أشـكرك على هذا التوضيح . بقيت لدى نقطة أخرى أريد اسـتيضاحها قبل أن نتعمق فى المناقشـة . ألا يعتبر إسـرافا من الدول النامية – ونحن من بينها – أن تنفق من مواردهـا المحدودة علـى بحوث الطبيعة الذرية ؟ إنه تخصص علمى هام ، هذا صحيح ، ولكنه مكلف جدا ومعقد للغاية .. بما لايسـمح للدول النامية – هكذا يقول البعض – بأن تحقق فيه نتائج ملموسة .. فما رأيك ؟

أجـــاب الرجل : «أمـــا عن ارتفاع تكاليف بحوث الطاقة الذرية .. فهذا صحيح . إنها فـــرع من العلوم باهظ التكاليف . وفيما عدا أمريكا والإتحاد الســـوفييتى .. فلا توجد دولة تستطيع أن تتحمل وحدها تكاليف البحوث المتعددة فى كل ميادين الطاقة الذرية . .

«.. هى بحوث باهظة التكاليف . هذا صحيح . ولكن الطاقة الذرية هى المســتقبل . وهى ضرورية وأساسية للدول النامية بأكثر مما تتصور . ولايمكن لدولة نامية أن تفاضل بين المشاكل العاجلة وبين مشـــكلة تطوير بحوثها النووية . فالطاقة الذرية هى أيضا مشـــكلة عاجلة . لكن على الدولة النامية أن تتخصص . أن تختار . فهى تستطيع أن تختار مجالا معينا من مجالات البحـــوث النووية وتركز أبحاثها ومواردها فيه . إن الدولة التى تفعل ذلك تســـتطيع بعد فترة قصيرة أن تحقق نتائج كبيرة تستفيد هى منها بشكل أساسى ، ثم يستفيد العالم كله» .

قلـــت : أنت ذكـــرت منذ لحظة أن بحوث الطاقة الذرية هى الأخرى مشـــكلة عاجلة بالنســـبة للدول النامية . هل تســـتطيع أن تذكر لى أمثلة لنوع المشاكل التى تستطيع الدول النامية أن تحلها بواسطة الطاقة الذرية ؟

أجـــاب الرجـــل فورا : «نعم . خذ عندك مثلا اســـتخدام الإشـــعاعات الذرية فى إبادة الحشرات . هذا موضوع له أهميته الاقتصادية بالنسبة لدولة كمصر . فلو كان هذا من بين المجالات التى ركزنا فيها جهودنا وخبرتنا فإن التوصل إلى حل نهائى لمشكلة دودة القطن ســـيصبح أمرا مؤكدا خلال ســـنوات قليلة قادمة . مشـــكلة أخرى : تحويل مياه البحر إلى مياه عذبة . إن استخدام الطاقة الذرية فى هذا المجال هو الحل الوحيد فى المدى الطويل – بل حتى القصير – لمشـــكلة الطعام والســـكان فى مصر . تصور أنت ماذا يمكن أن يكون الحال لو ركزنا جهودنا وخبراتنا وبعثاتنا ونشاطنا العلمى – طبيعة وكيمياء وغيرهما – فى التوصـــل إلى طريقـــة اقتصادية لتحويل مياه البحر إلى مياه عذبة نروى بها أراضى الصحراء الشاسعة ببلدنا ..

«باختصـــار أقـــول لك : مع أن الدول النامية هى الأكثر فقرا بين دول العالم .. إلا أنها هـــى الأكثر حاجة لبحوث الطاقـــة الذرية . هذه هى المعادلة الصعبة – بل الصعبة جدا – التى يجب أن نتوصل إلى حل لها» .

❑❑❑

كلمـات خطـيرة ؟ لا .. بل أكثـر . إن هذه الكلمات التى يقولهـا الدكتور النادى هى إنذار . والمجتمعات لا تتقدم إلا بواسـطة الذين يملكون هذا الفن : فن إنذار المجتمع فى الوقت المناسب .

أن هـ . ج . ويلز له كتاب اسمه (النائم يستيقظ) . وفى الكتاب يخبرنا عن رجل نام مائة سـنة . ثم اسـتيقظ ليجد حوله عالما مختلفا جدا عما عرفه من قبل . والدولة النامية سوف تصبح هذا الرجل إذا اختارت لنفسها تأجيل الإهتمام ببحوث الطاقة الذرية .. لأنها فى هذه الحالة تؤجل مستقبلا لا يقبل التأجيل .

وهذا المعنى هو ما يحاول أن يؤكده الدكتور النادى . والواقع ان كلمات الرجل تتمشى مـع الإهتمام الذى يعطيه فى حياته الشـخصية لموضوعات الطاقـة الذرية . أنه يملك فى بيته أكبر وأحدث مكتبة فى الشرق الأوسط – أكرر : فى الشرق الأوسط – لكتب ومجلات الطاقـة الذريـة . مكتبـة رائعة . والرجل يعطى وقته كله لعلمه . لا مسـرح . لاسـينما . لا تليفزيون . لا سـهرات . لا تدخين . الاسـتيقاظ فى السادسـة صباحـا . النوم خمس ساعات . الباقى قراءة .. قراءة .. قراءة . إنه يقرأ المستقبل . لا .. بل يخترع المستقبل . هذا موقف كل رجل علم فى مصر يعمل الآن فى بحوث الطاقة الذرية .

والرجل يعطى حياته لحساب مستقبلنا . بل حتى معنى السعادة بالنسبة له هو : «أكون سعيدا جدا عندما أسمع عن تقدير دولى لأحد بحوثنا فى الطاقة الذرية» . أنه يعطينا حياته إذن .. ويعطينـا أولاده أيضـا . إن لديه أربعة .. ثلاثة أولاد .. وبنت . أصغرهم منقول إلى السنة الأولى ثانوى . أكبرهم فى بعثة الآن فى أمريكا . البنت طالبة فى كلية الصيدلة .

وكل ما يتمناه الرجل لأولاده هو أن : «يواصل واحد منهم ما بدأته أنا .. حتى يحقق مـا لم أحققـه أنـا» . ومع رغبته الملحة هـذه فى أن يواصلوا هم ما بـدأه هو .. إلا أنه لم يتدخل فى حياتهم الشـخصية كثيرا . مجر د نصيحة . لا . مجرد رأى .. فلا أحد يقبل بالنصيحة من أحد فى هذه الأيام !

❑❑❑

.. ونعود إلى الذرة .

أقول للدكتور محمد عبد المقصود النادى : كم دولة نووية فى العالم الآن ؟

وهو يرد : خمس .. الولايات المتحدة .. الإتحاد السوفييتى .. بريطانيا .. فرنسا .. الصين .

– متى تصبح الدولة .. دولة نووية ؟

– عندما تستطيع أن تصنع الوقود الذرى وتحلله وتستخرج منه العناصر المختلفة .. ثم تعيد تحويلها مرة أخرى . .

– إذن .. ألا يعد وجود المفاعلات النووية فى دولة ما مقياسا لوصفها بالدولة النووية ؟

– لاطبعا . شراء مفاعل نووى مسألة سهلة .. تماما كشراء آلات مصنع . إنه ليس دليلا فى حد ذاته على أن الدولة صناعية . ولكن الدولة تصبح دولة صناعية عندما تتمكن من صناعة آلات المصانع نفسها .. وهكذا فى الذرة . وجود المفاعل النووى هو خطوة أولى . لكنه ليس فى حد ذاته دليلا على أن الدولة ذرية .

– وهل هناك دول كثيرة لديها مفاعلات نووية فى العالم الآن ؟

– نعم . كثير . إن أصغر الدول تتنافس الآن فى الحصول على مفاعلات نووية .

❑❑❑

منافسة طيبة .

فالواقع أن الطاقة الذرية التى أصبحت تحظى الآن بمثل هذا الإهتمام من الدول المختلفة.. قد بدأت بداية متواضعة جدا ، ومنذ سنوات قليلة جدا .

لقد كانت البداية هى تلك البداية المتواضعة التى قام بها العالم الإيطالى انريكو فيرمى (١٩٠١/١٩٥٤) . لقد أجرى فى مايو ١٩٣٤ أول تجربة حقق بها انشطار ذرات اليورانيوم . ولكنه لم يتنبه لما رآه لأن النظريات العلمية السائدة وقتها كانت – كما ذكرت من قبل – تقول إن من المستحيل انشطار الذرة . إن هذا العالم الإيطالى كوفىء قبل وفاته باعتباره (.. الرائد الذى كان أول انسان فى العالم كله يحقق تفاعلا ذريا) . ولكن تلك المكافأة جاءت بعد سنوات طويلة – طويلة – من تجربته الأولى فى سنة ١٩٣٤ . وكان من الممكن – بفضل تلك التجربة – أن يتم اكتشاف الطاقة الذرية قبل اكتشافها فعلا بخمس سنوات . ولكن هذا الاكتشاف كان جديدا وقتها إلى درجة لم تجعل أحدا يؤمن به .

والواقع أن المسألة هى - كما يقول اللورد ريتش كالدر ، الصحفى العلمى الإنجليزى المشهور : «ان الثورات العلمية تحدث فقط حينما يستطيع الرجال العظماء أن يحرروا أنفسهم من القوالب السائدة للتفكير» . صحيح . فالأجيال تولد من بعضها البعض . وحينما يحاول جيل ما أن يفرض وصايته على الجيل التالى له فإن المجتمع يصاب بأفدح الخسائر .

وأنا الآن أسأل الدكتور النادى : من - من الجيل السابق - تتلمذت أنت عليه ؟

ويرد الرجل بثقة : «ان أستاذى فعلا كان المرحوم الدكتور على مصطفى مشرفه . لقد درس لى مبادئ الطبيعة النووية فى السنة الرابعة بكلية العلوم . انه أول من حصل على الدكتوراه فى الطبيعة الذرية النظرية .. وأنا أول واحد بعده . لقد تعلمت من هذا الرجل أشياء كثيرة غير مجرد علمه الواسع . وتعلمت أيضا من أستاذ ثان لى هو المرحوم الدكتور محمد فهمى . لقد كانا مثالين حقيقيين للأستاذ الجامعى» .

قلت مقاطعا : بالمناسبة .. ماهى طبيعة نظرتك لنظام التعليم المصرى الحالى ؟

قال الرجل : «الطالب المصرى عنده استعداد ضخم للبحث والدراسة . لكن ، للأسف ، هو لايجد التوجيه السليم لمواهبه بعد الثانوى ، ولا الفرصة العلمية الكاملة بعد الجامعة . النقطة الثانية : سوء نظام توزيع الباحثين على معاهد البحث العلمى . النقطة الثالثة - بل المشكلة الكبرى - هى نقص المجلات والكتب العلمية الحديثة . ان العلم يتطلب القراءة المستمرة . فى الأدب أنت تبدأ بقراءة أقدم الكتب . فى العلم .. العكس .. يجب أن تبدأ بأحدث الكتب . ونحن نرتكب جريمة كبرى فى حق أنفسنا عندما نقصر فى حل هذه المشكلة .. لأننا نعزل أنفسنا تماما - باختيارنا - عن عصرنا » .

قلت : هذه نقاط هامة بلا شك . ولكن .. ألا توجد إلى جانبها مقترحات لك لتحقيق نتائج سريعة ؟

أجاب : «شىء واحد يعطيك نتائج عاجلة : التركيز . نحن نحتاج إلى مراكز علمية أقل عددا ولكن أكبر قوة . إن هذه المراكز يجب أن تمثل مدارس علمية . ولا يوجد علم بغير مدارس علمية . كل مدرسة علمية لابد من تدعيمها تماما وجدا . لابد مثلا من استضافة العلماء الأجانب المتازين فى كل فرع علمى . إن النتائج الكبرى فى العلم لن

تتحقق إلا باحتكاك أحسن كفاءاتنا بأبرز العلماء الدوليين . هذا هو ماحدث مثلا فى مجال الكيمياء العضوية ، ولذلك فهى تحقق نتائج كبيرة فى مصر ..

«.. نقطة ثانية ، هى بعثاتنا العلمية . هذه البعثات هى أيضا يجب تركيزها . ان المبعوثين يعودون بعد أن عاشوا وسط مدارس علمية متنافرة ومتعددة . ان التفاهم العلمى السريع صعب بين واحد عائد من المجر مثلا ، وآخر عائد من أمريكا ، وثالث عائد من روسيا ، ورابع من فرنسا ، وخامس من انجلترا .. الخ» .

قلت مقاطعا : لو سمحت .. أنت أشرت منذ لحظة إلى أهمية المدارس العلمية .. لماذا تأخذ فى رأيك هذه الأهمية ؟

أجاب : «لأن الحركة العلمية تتوقف كثيرا على العوامل الشخصية . فحينما يوجد لديك عالم نابغة فإن وجوده كفيل بخلق مدرسة علمية ..

«.. باختصار : ان العلم بقدر ماهو جماعى فى حركته .. فإنه شخصى فى نموه . ولذلك ففى معظم الدول المتقدمة .. عندما يصل الشخص إلى درجة أستاذ جامعى يقيمون له معهدا علميا مجهزا ويجعلونه مديرا له ، لكى يتربى على يديه جيل آخر من بعده» .

❑❑❑

كلام معقول ؟

طبعا . وهناك كثيرون يتفقون مع الدكتور النادى فى رأيه . مثلا .. الدكتور «جيمس كونانت» الذى ظل رئيسا لجامعة هارفارد الأمريكية عشرين سنة حتى عام ١٩٥٣ . كان يؤكد كثيرا على الجانب الشخصى فى العلم . وعلى أن العلم هو أولا رجل عالم .. والباقى يجىء بعد ذلك . وكان يقول : «إن الثورات التى حدثت فى العلم .. إنما جاء بها رجال باحثون طليقون غير مقيدين . إن الجامعات هى المكان الطبيعى للبحث العلمى غير المقيد . العلم للعلم . ومراكز البحوث هى المكان الطبيعى للباحثين وفق برنامج وخطة . العلم للحياة» .

وهنا أعود إلى الدكتور محمد عبد المقصود النادى لأسمع منه :

«أنا أيضا أعتقد أن البحث العلمى ينمو أساسا فى الجامعات . إنها المكان الطبيعى للبحث العلمى الحر ، بشرط أن نفهم أن الجامعة هى أستاذ .. زائد طالب .. زائد معمل .

أما معاهد البحوث فهى التى تتولى بحث المشاكل العاجلة ، إنها تتخصص فى موضوعات محـددة تطبيقية وهامة للاقتصاد القومى . والمشـكلة عندنا هى أننا خلطنا بين الاثنين .. فلا الجامعة قامت بدورها .. ولا المعاهد حلت محل الجامعة ..

«.. البيئة العلمية شرط أساسى لنمو العلم . أما الوحدة العلمية فهى قاتلة .

«.. الطاقـة الذريـة بدأت هـى الأخرى كعلم للعلم . وانتهت إلى مـا نراه الآن .. إنها مستقبل العلم .

«.. أمنيتى فى المسـتقبل هى أن أقيم فى جامعـة القاهرة معملا للطبيعة النووية يحقق نتائج ذات قيمة» .

❑❑❑

و .. ماذا بعد ؟

أن هناك مسرحية (النبيل البورجوازى) كتبها موليير . فى المسرحية حادث مشهور.. لقد شـعر بطل المسـرحية بسـعادة بالغة عندما علـم فجأة أنه كان طـول حياته يتكلم .. النثر !

ولا شـك أن معظمنا سوف يشعر بنفس السعادة عندما نجد علماء ، كالدكتور النادى ، مازالـوا .. برغم كل ما نفعله ضد العلم .. يعيشـون بيننا . نحـن إذن لا ينقصنا العلماء . ربما . ولكن ينقصنا بالتأكيد : أن نفهم العلماء . أن نوفر لعقولهم مناخا علميا يستنشـقون منه هواء صحيا .

و .. عند التاريخ ما يقوله لنا فى هذا الشـأن . لقد عاشـت أثينا واسـبارطه فى عصر واحد . اهتمت أثينا بحرية العقل . واهتمت اسبارطه بحرية العضلات .

النتيجة : انتصرت اسـبارطه يوما ، ولكن خلد ذكر أثينا . انتصرت اسـبارطه يوما ، وانتصرت أثينا ألف سنة .

محاولة .. لتأميم القانون

إعطنـــى مـــن وقتك ثلاثة أيام – ٣ أيام فقط لو سمحـــت – لنقضيها معا داخل جدران أربعة . بعدها ســأحولك إلى إنســـان آخر . ربما تصبح فيلســـوفا جدا . ربما مجنونا جدا . ربما عاقلا جدا . ربما ثرثارا جدا . ربما صامتا جدا . ولكن المؤكد فى هذا كله : إنك فى النهاية ، سوف تصبح شخصا آخر . آخر جدا .

إن الله – وبعـــض النـــاس أيضـــا – هو الذى يعلم ماذا يمكن أن يحدث لك فى هذه الأيام الثلاثة .. داخل الجدران الأربعة . وللإختصار ، فإن الشـــىء الأساســـى هو : إننى سأمنع عنك العدل . سأمنع عنك القانون .

وســـوف أســـتطيع ذلك دائما ، ما دمت أنت ضعيفا وأنا قوى .. وما دمت بلا سلطة ، وأنا معى كل الســـلطة . فالقوى هنا يفرض قانونه على الضعيف . إنها صورة حديثة جدا لانحراف الســـلطة . وهى أيضا صورة قديمة جدا لانحراف القوة . مشـــكلة بحثت البشرية عن حل لها ، حتى قبل أن يتحدث عنها أفلاطون فى جمهوريته .

ففى بعض القبائل البدائية شوهد المحاربون وهم يجهزون على العجائز .. ثم يلتهمون لحمهم . واحتاج الأمر إلى فترة طويلة من التطور ، قبل أن يكف الإنسان عن أكل أقربائه.. ليتجه إلى أكل أعضاء القبائل المجاورة .

ثم حدث – وكان لابد من ذلك – أن اكتشف الإنسان حاجته إلى القانون .. إلى مجموعة من القواعد المعروفة مقدما . لكى تحميه من طغيان أخيه الإنسان . وعندما وضع جزاء على مخالفة تلك القواعد .. أصبح هناك ما نسميه الآن : القانون .

● جريدة «أخبار اليوم» : ١٣/٧/١٩٦٨ .

فالقانـون نشـأ أصلا فـي صورة تحفظات علـى القوة . تحفظات على السـلطة . هذه التحفظات تقل فتنعدم فى مجتمعات الغاب . وتزيد فتتأكد فى المجتمع المتحضر .

هـذا إذن هو السـبب الأصلى الذى وجد القانون من أجلـه . وهو أيضا الموضوع الذى يتحدث فيه هذا الرجل : الدكتور ثروت أنيس الأسيوطى .

□□□

يقول الرجل : «لايوجد مجتمع بلا قانون . فبمجرد اجتماع إنسـان مع آخر .. ينشـأ القانون فورا . بمعنى أنه فى كل مجتمع لابد من وجود قواعد للسير والسلوك . لقد وجدت هـذه القواعد عند الإنسـان البدائى فى صورة تحديد للأعمال المحرمة ، سماها الإنسـان البدائى : التابو . ان (التابو) هى قواعد دينية تنسب إلى القوى الخارجة عن الطبيعة ، بمقتضاها يحرم الإنسان على نفسه أفعالا معينة ، وإلا تعرض لعقاب الآلهة ..

«.. ثم تطورت قواعد التابو بعد مراحل طويلة ، بحيث أصبح هناك ما نسميه الآن : القانـون . وتعريـف القانون ما يزال محل خلاف . البعـض يقول إنه مجموعة من القواعد الملزمـة التى تحكم علاقات الأفراد فى المجتمع . تعريف شـكلى . أما التعريف الصحيح فهـو : أن القانـون هو مجموعة من القواعد التى يلتزم بهـا الأفراد فى المجتمع .. لخدمة مصالح الطبقة الحاكمة ..

«.. فالرأسمالية هى الطبقة الحاكمة فى المجتمع الرأسمالى ، ومن ثم فالقانون مسـخر لخدمتها . والشـعب هو السـلطة العليا فى المجتمع الإشتراكى ، ولذلك فعلى القانون أن يخدمه أولا ..

«.. حسنا . أنت تقول إننى هكذا مؤمن بالتفسير المادى للقانون . فعلا . فالقانون ليس ناشـئا من أسباب مثالية أو أخلاقية . إنه ترجمة لصراع بين مصالح وطبقات متناقضة فى المجتمع . الطبقة التى تنتصر هى التى تضع فى النهاية كل القوانين» .

□□□

ولكن – وهذه أصول المناقشة – من الواجب أن نتعرف مقدما على الرجل صاحب هذه الآراء ، قبل أن نواصل معه المناقشة : أخذ وعطاء .

الرجل هو الدكتور ثروت أنيس الأسـيوطى – ٤٢ سـنة . أعزب . أستاذ مساعد بكلية الحقـوق جامعـة القاهـرة . إنه الوحيد فى مصـر المتخصص فى «فلسـفة القانون» . وعن

تخصصه هذا حصل على جائزة الدولة التشجيعية سنة ١٩٦٥ ، ووسام الجمهورية من الطبقة الثالثة نتيجة لتفوقه العلمى ودراساته القانونية . وهو يجيد ٨ لغات أجنبية. أكرر : ثمانى لغات أجنبية ، هى : الإنجليزية .. الفرنسية .. الإيطالية .. الألمانية .. الإسبانية .. البرتغالية .. اللاتينية .. الروسية .

وهو يذكرنى بنوع خاص من الناس . نوع تحس معه أن ماضيه كله .. هو مجرد مقدمات فى كتاب طويل مفتوح . مجرد تمهيد . أو لنقل .. مجرد بروفة .. لأفكار أخرى لم تبدأ بعد فى الظهور . مع مثل هؤلاء الأشخاص لا نستطيع أن نصل إلى حكم قاطع ، أو تنبؤ مؤكد ، حول نوع المستقبل الذى ينتظرهم .. فما زالت لديهم أشياء كثيرة لم يفصحوا عنها بعد . حسنا . هذا الرجل من هذا النوع .

والدكتور ثروت ترتيبه الثالث بين ستة إخوة . هذه من المرات القليلة فى حياته التى لم يكن ترتيبه فيها الأول . الإخوة بالتساوى : ثلاثة ذكور ، وثلاث إناث . وهو لا يدخن . لا يشرب . ينام قليلا . يتدين قليلا . مجرد مرة فى الأسبوع يذهب فيها إلى الكنيسة كل يوم أحد .

والرجل نفسه متعدد الزوايا : الجسم طويل نسبيا . الوجه أسمر تقريبا . خال من العواطف غالبا . العقل نشيط تماما . إنه عقل لم يعلن بعد عن كثير من محتوياته .

وهو إنسان من الذين تختلف معهم كثيرا ، وتحترمهم دائما . وتقل دائرة الخلاف تماما كلما كان القانون هو موضوع المناقشة . ولذلك فسوف أسأله فورا : أنت تخصصت فى فلسفة القانون .. أليس كذلك ؟ ما هى إذن فلسفة القانون ؟

أجاب الرجل : قبل فلسفة القانون هناك أولا النظرة العلمية للقانون . إن الأسلوب العلمى لبحث أى موضوع يقتضى مبدئيا الربط العالمى للظواهر . مثلا .. أنت يتعذر عليك فهم فيضان النيل فى القاهرة فى شهر سبتمبر كل عام مالم تدرس حركة الرياح فوق المحيط .. وما تحمله من سحب كثيفة على جبال الحبشة وهضبة أوغندا ، حيث تتساقط الأمطار هناك بغزارة ، ثم تتجمع مجارى المياه وتظل تتدفق إلى أن تصب فى مجرى نهر النيل الممتد إلى ساحل البحر الأبيض . فظاهرة الفيضان التى تراها فى القاهرة تتوقف إذن على ظواهر أخرى عديدة . أهمها سقوط الأمطار على بعد أربعة آلاف

كيلومتر جنوبا ، ثم التكوين الجغرافى من خط الإستواء إلى البحر الأبيض ، ثم طبيعة المياه فى الاندفاع... إلخ .

«.. ونفس الحال نراه بالنسبة إلى الظواهر الاجتماعية . فالإنسان يولد فى مجتمع . فكره وعاداته وأخلاقه مرتبطة بظروف هذا المجتمع . ولا تفسير لتصرفات الإنسان إلا بالرجوع إلى ظروف هذا المجتمع . وبالنسبة للقانون ، فإن هذا معناه ضرورة الربط بين القانون من جهة ، وبين الاقتصاد والاجتماع والفلسفة والعلوم السياسية من جهة أخرى . فالقانون وليد لظروف اجتماعية متشابكة» .

قلت : ما زال السؤال مطروحا .. تعريف فلسفة القانون .

أجاب الدكتور ثروت أنيس الأسيوطى مسترسلا : «إن الفلسفة أصلا هى علم العموميات . فهى تهتم بمعرفة الأصول الأولى للأشياء وأسبابها . وفلسفة القانون – مثل كل فلسفة – تهتم بدراسة القانون كظاهرة تحكمها أسباب عامة مشتركة فى تطورها . فالفلسفة هنا تهتم بما هو كائن .. لكى تصل بعد ذلك إلى ما يجب أن يكون . إنها تهتم أولا بنشأة القانون ، ثم بغايته ، ثم بطرق تفسيره وتطبيقه» .

قلت : حسنا . نبدأ إذن من النقطة التالية .. لماذا نشأ القانون أصلا ؟

أجاب بعد صمت : «هناك رأيان فى هذا الصدد . أصحاب الرأى الأول – وزعيمهم فقيه إيطالى اسمه سافينى – قالوا إن القانون مثل اللغة ، يرتبط ارتباطا عضويا بطبيعة كل شعب من الشعوب . إنه يتكون بطريقة تدريجية غير محسوسة ، مستندا إلى الاقتناع العام من جانب الشعب .. مستقلا عن الاختيار الحر لكل فرد . فالقانون ينشأ أولا فى شكل عرف من خلال العادة والإيمان الشعبى ، ثم يتبلور عن طريق علم القانون ..

«.. وهناك رأى آخر مضاد فى تفسير نشأة القانون . الرأى يقول إن القانون يرجع فى نشأته إلى عوامل مادية لا إلى عوامل مثالية . فالقانون ليس وليد اقتناع الشعب ، بل هو يفرض عليه بالقوة . القوة ليست فقط مادية أو عسكرية ، بل هى أساسا قوى اقتصادية وسياسية . وإذا استخدمنا التعبيرات الحديثة قلنا .. إن القانون تفرضه مراكز القوة على الشعب لخدمة مصالح الطبقة الحاكمة ..

«وبالطبع أعتقد أن الرأى الأخير هو الصحيح . وخذ مثلا على ذلك فى العلاقة بين المالك والمستأجر . إننا نلاحظ أنه فيما مضى كان ملاك العمارات يتحملون ثمن المياه التى

يستهلكها المستأجر . ولكن فى معظم العمارات الحديثة أصبح المستأجر هو الذى يتحمل ثمنها . هل هذا التحول نشأ نتيجة اقتناع المستأجرين به ، أى نتيجة للعرف كما يقول أصحاب الرأى الأول ؟ طبعا لا . وإنما نشأ هذا التحول نتيجة لوجود أزمة مساكن .. جعلت المستأجر يتعرض لحالة ضغط اقتصادى من جانب الملاك .. ومن ثم فإنه مضطر لتحمل ثمن المياه ، وإلا فلن يحصل على الشقة التى يحتاج إليها ..

«.. فالخلاصة إذن هى أن القانون يفرض على الشعب وهو فى ذلك يعبر عن مصالح الطبقة الحاكمة ، وعن مصالح مراكز القوة» .

قلت : وكيف يمكن أن يصبح القانون معبرا فعلا عن مصالح الشعب ؟

أجاب بسرعة : «لا يمكن إلا إذا أصبح الشعب نفسه هو مركز قوة ، بحيث يطغى على مراكز القوى الأخرى».

□□□

ويدق جرس الباب فى منزل الدكتور ثروت أنيس الأسيوطى .. ومن ثم فالحديث معه يتوقف مؤقتا . ولكن هذا لايمنع بالطبع من الحديث عنه . فدراسة حياته يمكن أن تضع لها عنوانا من نوع (كيف تقاوم ظروفا أقوى منك وأضعف من إرادتك) . أو لنقل (كيف تصعد من القاع إلى القمة فى زمن قياسى) .

ففى حياة الدكتور ثروت أشياء كثيرة تستحق الحديث .. مع أنه يخفيها عن كثيرين من أصدقائه . من ذلك مثلا أنه اضطر إلى العمل فى مطلع حياته بجانب دراسته . التفسير اقتصادى ، كالتفسير الذى يؤمن به بالنسبة للقانون . لقد اضطر إلى العمل صبيا فى شركة المحلة الكبرى للغزل والنسيج بيومية قدرها ثلاثة قروش ونصف القرش . كان ذلك فى سنة ١٩٤٠ . ثم فصل طبعا عندما اكتشف أحد مفتشى الشركة صغر سنه .

وفى سنة ١٩٤٤ كان طالبا بالتوجيهية (الثانوية العامة) واضطر أيضا للعمل خلال دراسته . أعمالا كثيرة . من بينها مثلا صبى بقال ، عامل فى محل تجارى ، مدرس خصوصى . ومع ذلك فقد نجح فى نفس السنة وكان ترتيبه الأول على جميع طلبة الثانوية العامة فى (القطر المصرى) . فى تلك السنة حصل على مكافأتين ماليتين نتيجة تفوقه . مجموعهما ٨٠ جنيها ، إحداهما من وزارة المعارف .

ولكنه لم يلتحق بالجامعة فور حصوله على شهادة التوجيهية . لقد انقطع عن الدراسة لمدة أربع سنوات . حاجته إلى العمل هى السبب أيضا . ولكنه عندما التحق بجامعة القاهرة حصل منها على ليسانس الحقوق (١٩٥١) بدرجة الامتياز . ثم سافر فى بعثة دراسية إلى ألمانيا الغربية .. وحصل على الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة ميونيخ (١٩٥٧) . بعدها بسنتين حصل من القاهرة على الدكتوراه مرة ثانية مع مرتبة الشرف الأولى . ثم سافر فى بعثة دراسية إلى أمريكا . من هناك حصل على درجة الأستاذية فى فلسفة القانون من جامعة نيويورك .

□□□

قلت له : ماهى أسباب تفوقك العلمى ..فى رأيك ؟

وابتسم الرجل . لا إجابة .

إذن سأجيب أنا بدلا منه . إنه : الهدف المقرر مقدما .. زائد الصبر الموجود دائما .. زائد الاستمرار . إن ساعات تفرغه للقراءة تصل إلى ثمانى ساعات يوميا أيام عمله . فى الإجازة الصيفية يرتفع المعدل إلى ١٦ ساعة يوميا . ست عشر ساعة من القراءة كل يوم .. تصور ؟ (وعندما يقل المعدل عن ذلك أشعر بقلق على نفسى) . إن مكتبته الخاصة فى منزله تضم خمسة آلاف كتاب . مكتبة أنيقة .

والواقع أن صبره فى القراءة له جذور فى حياته . وخلال سنتى دراسته فى أمريكا كان يقضى وقته يوميا فى مكتبة جامعة نيويورك . فى الصباح يأخذ معه حقيبة فيها زجاجة لبن وساندويتشات .. ثم يجلس فى المكتبة من الثامنة صباحا إلى الحادية عشرة مساء . قراءة بلا انقطاع . وكانت النتيجة هى كتاب من تأليفه بعنوان «نشأة المذاهب الفلسفية وتطورها» . كتاب ضخم . . استعان فى تأليفه بـ ١٢٠٠ مرجع أجنبى بثمانى لغات . تصور ؟ (أعرف أساتذة جامعة فى مصر مراجعهم الوحيدة فى تأليف كتبهم هى مقالات الصحف .. العربية) .

المهم .. نعود إلى القانون .

فمن الأقوال المشهورة فى التاريخ قول أحد الفلاسفة : على الشعب أن يناضل من أجل قانونه .. تماما كما يناضل من أجل الدفاع عن أسوار مدينته .

وآخر كان يقول : إن الشعب الذى يسكت على الاعتداء على قوانينه .. إنما يوقع بيديه على قرار إعدامه .

أما بسكال فيقول : العدل بغير القوة عجز . والقوة بغير العدل طغيان . فيجب جمع العدل مع القوة .. بجعل العادل قويا ، والقوى عادلا .

وقبله قال فليتشر : لا تخبرنى بماذا يقول القانون . أخبرنى بماذا يقول الناس عن القانون .

❑❑❑

وأسأل ثروت أنيس الأسيوطى : هل تعتبر القانون قانونا .. حتى ولو كان لايطبق ؟

أجاب بسرعة : «لا طبعا . فالعبرة بالتطبيق . وإلا فلن يساوى القانون أكثر من ثمن الورق الذى كتب عليه».

قلت : لماذا اعتبر كبار المفكرين دائما أن حماية القوانين من الاعتداء عليها هى واجب الشعب بأكمله ؟

أجاب : «لأن الشعب هو الذى سيخسر من هذا الاعتداء» .

قلت : حسنا . هذا يفتح أمامنا موضوعا جديدا .. ما هى وظيفة القانون أصلا ؟

استوى الرجل بقامته فى كرسيه . قامة صلبة . بعد لحظات أجاب : «القانون دائما فى خدمة الطبقة الحاكمة ، فوظيفته خدمة مصالح الطبقة الحاكمة . ووظيفة القانون تختلف باختلاف هذه المصالح . وباختلاف القوة الاقتصادية المسيطرة على المجتمع .. يختلف القانون . مثلا .. الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر كانت لخدمة الطبقة البورجوازية وضد طبقة الإقطاع . وبالتالى فإن مجموعة قوانين نابليون التى صدرت فى فرنسا سنة ١٨٠٤ كانت مهمتها حماية الطبقة البورجوازية . فهى تنص مثلا على أن الملكية الخاصة حق مطلق . وهى تنص على أن العقد شريعة المتعاقدين ، فلا يضار المشترى من أية ظروف يتعرض لها البائع بعد إبرام العقد . وهى لا توجب المسئولية إلا حيث يكون هناك خطأ . فالعامل مثلا لا يحصل على تعويض عن إصابته فى المصنع إلا إذا ثبت وجود خطأ شخصى من جانب صاحب المصنع . طبعا هذا صعب .. إن لم يكن مستحيلا .. فى التطبيق ..

«.. وباختصـــار ، فالقانـــون فى المجتمع يخدم الطبقة الحاكمة . فى عصر الاقطاع كان فى أوربا تحالف بين رجال الدين والاقطاع . ولذلك كانت جرائم الدين هى أكبر الجرائم . فى عصر الرأسمالية يسـيطر الرأسماليون على الحكـم . لذلك فجرائم الاعتداء على الملكية الخاصة هى أهم الجرائم . فى المجتمع الإشـتراكى الشـعب هو صاحب السلطة . ولذلك فالجرائم الاجتماعية الموجهة ضد المجتمع كله هى أهم الجرائم» .

قلـت : هـل تضرب لى أمثلة على الفـارق بين وظيفة القانون فـى المجتمع الرأسمالى ووظيفته فى المجتمع الاشتراكى ؟

قال : «طبعا . فى المجتمع الرأسمالى جرائم الاعتداء على الأشخاص والأموال هى أهم الجرائم . خذ السـرقة مثلا . إن أقل حادث سـرقة يعاقب عليه الجانى بالسـجن سنتين على الأقل . فالقانون هنا ينظر للسارق باعتباره معتديا على حق من الحقوق الأساسية التى يحميها ، وهو حق الملكية . أما فى المجتمع الاشـتراكى فتصل عقوبة السـرقة إلى حدها الأدنى ، لأن القانون هنا يرى أن الجانى ما كان ليسرق لولا حاجته . فالمجتمع يعتبر أن علاج مشكلة الجوع هى مسئولية الشعب كله ، فلا يتحمل نتيجتها شخص واحد ..

«.. مثل آخر من مجتمعنا نحن : الأشخاص الذين حجزوا سيارات (نصر) لدى شركة النصر للسيارات ، ثم مرت سنوات دون أن تفى الشركة بالتزامها بتسليم السيارة . لو أننا فى مجتمع رأسمالى .. فإن الشركة ستعتبر مسئولة عن تسليم السيارات للحاجزين بمقتضى العقد تحت أى ظرف من الظروف ، حتى ولو أعطتها الدولة العملات الصعبة اللازمة لها خصما من الرصيد المخصص لاستيراد المواد التموينية للشعب . أما فى المجتمع الاشتراكى فالعقـد ليس مقدسـا فى حد ذاته ، ولكنه أداة فى تنفيذ خطـة التنمية . فيخضع بالتالى للظروف التى تتأثر بها الخطة . فإذا تغيرت أولويات الاستيراد ، بحيث خصصت العملة الصعبة لاسـتيراد الاحتياجات الأساسية للشعب كله – دون الإحتياجات الكمالية لبعض أفراده كالسـيارات – فإن الشركة لا تكون مسئولة عن عدم تسليم السيارات للحاجزين فى المواعيد المقررة» .

قلت : فى تفسيرك لقوانين كثيرة تبدو ميالا لتفسير بعضها – كالقانون التجارى مثلا – على أساس الصراع الطبقى .. أليس كذلك ؟

أجـاب الدكتور ثـروت : «فعلا . بل إننى أصل إلى أبعد مـن ذلك ، فأطالب بضرورة إلغـاء القانـون التجارى أصلا . إنه قانون طبقى . إنه تابع للنظرة الرأسمالية للقانون . لقد نشأ فى القرون الوسطى من خلال الصراع الطبقى الذى احتدم بين الإقطاع والبورجوازية .. لقد خص التجار أنفسهم بقانون يحكم علاقاتهم أيام الصراع الطبقى الرهيب فى أوربا . ثم أخضعوا الشـعب كله لهذا القانون حينما يتعامل مع التجار . ولقد ألغى القانون التجارى فـى بـلاد كثيرة ، حتى فى بعض الدول الرأسمالية . ومن ثم فما زال رأيى فيه كما هو .. قانون طبقى» .

قلت : لماذا يقولون عنك إنك يسارى ؟

أجاب : «المسـألة ليسـت يمينا أو يسارا . المسـألة هى : البحث عن الحقيقة . وهذه مشكلة أبدية» .

❑❑❑

ونعود إلى القانون .

إن أهـم كتـاب ألفه ثروت أنيس الأسـيوطى حتى الآن هو «نشـأة المذاهب الفلسـفية وتطورهـا» . أهـم كتاب .. بالمقاييس العلمية على الأقـل . فلقد أحدث ظهور هذا الكتاب ضجة علمية فى معظم الدوائر القانونية الكبرى فى العالم .

قالـوا عنـه فى اليونـان : إنه كتاب يفتـح آفاقا واسـعة لأول مرة فى نطاق فلسـفة القانون .

وقالوا عنه فى ايطاليا : إنه كتاب يذكرنا بأبحاث ونظريات العالم الإيطالى الكبير فيكو (وهو فقيه ايطالى له مكانة هناك كمكانة ابن خلدون عند العرب) .

وقالـوا عنه فى فرنسـا : إن المرء حينما يقرأ كتاب الأسـيوطى يفاجأ بغزارة معلوماته ودقتها خاصة بالنظر إلى ضخامة موضوع البحث وتعدد اللغات التى يسـتخدمها والعقبات التى يتناولها منذ حمورابى إلى اليوم .. والواقع إن نظرية النسبية التى يعتنقها الكتاب هى النظرية الصحيحة الوحيدة التى تمكن من فهم أى فلسفة .

❑❑❑

قلت لثروت أنيس الأسيوطى : ماهى نظرية النسبية التى تعتنقها ؟

أجـاب الرجـل : «ملخصها أن القانون نسـبى وليس مطلقـا . إن النار تحترق بنفس الطريقة عند الفرس وعند الإغريق . القانون ليس كذلك . إنه نسبى . بمعنى أنه يعبر فقط عـن ظـروف المجتمع الذى يخاطبه ، والعصر الذى يصدر فيه . ولذلك فهناك مدرسـتان فى تفسـير القانون . مدرسـة نسميها علميا مدرسة (الشرح على المتون) .. أى هؤلاء الذين يفصلـون بـين مبادئ القانون وواقع الحياة . وتكتفى فى تفسـير القانون بشـرحه اللفظى والشكلى . ومدرسة أخرى – هى الصحيحة – تؤمن بضرورة الربط بين القانون من جهة ، وبين الاقتصاد والاجتماع والفلسـفة والعلوم السياسـية من جهة ثانية . إنها ترى القانون نتاجا للواقع . ومن ثم فهى تدرس الواقع أولا لتفسر القانون بعد ذلك» .

❑❑❑

حسنا . نعود إلى الواقع .

والواقـع هنا هو مصر . فلو أخذنا معدل خريجى الجامعات المصرية كمقياس ، لوجدنا أنـه من بين كل ١٥ ألف مواطن يعيشـون الآن فى مصر هناك واحـد فقط يفهم القانون . أما الذين ينفذون القانون فعلا فأقل من ذلك كثيرا .

وأسـأل ثروت الأسـيوطى : هل أنت راض عن الأسـلوب الحالى فـى تدريس القانون بمصر ؟

أجاب الرجل بكلمات مبللة بالأسـف : «إن المشكلة الرئيسية فى التعليم الجامعى هى ضخامة عدد الطلبة من ناحية ، وقلة عدد الأساتذة من ناحية أخرى» .

قلت : لو كنت تنادى بتخفيض عدد الطلبة فأنت مخطىء .

أجـاب : «لا . ولكننـى أنـادى بزيادة عدد الأسـاتذة . لأن الوضع الحـالى معناه أن المحاضرات أصبحت مجرد حصص استماع».

قلت : بعيدا عن الجامعة .. هل تعلم أننى أختلف معك فى أشياء كثيرة ؟

– أعلم .

– ألا يضايقك ذلك ؟

– بالعكس .

– إذن .. هل تطبق ذلك على طلبتك ؟

– فعلا . إننى أكون سعيدا لو عارضنى طالب فى مسألة علمية . وأكون سعيدا أكثر لو تأكد صوابه وثبت خطئى.

– هل تعتبر نفسك ناجحا ؟

– (بابتسامة) .. لا تعليق .

– ما هو مقياس نجاح الأستاذ الجامعى ؟

– رأى طلبته فيه .

– هل تتعمد التواضع هنا ؟

– لا . أنا أتعمد الحقيقة .

– ما الذى ينقص دارسى القانون فى مصر ؟

– أن يقرأوا فى علوم الاجتماع والاقتصاد والتاريخ على الأقل ، فهذا هو الحد الأدنى اللازم لدراسة القانون .

– ما هو مشروعك القادم ؟

– استكمال سلسلة كتب عن نظام الأسرة فى العالم ، بهدف التوصل إلى نظرية شاملة لتطور الإنسانية .

– متى تنتهى من ذلك ؟

– بعد ١٠ سنوات على الأقل .

– هل تؤيد ، أو تعارض ، استقلال القضاء ؟

– طبعا أؤيده .

– ولماذا (طبعا) هذه ؟

– لأن استقلال القضاء هو الضمان الوحيد لتنفيذ القانون بنزاهة .

❑❑❑

والأسيوطى معه الحق .

فالقانون هو قاموس بشروط الحياة فى المجتمع . أو – باختصار – هو تسجيل لعلاقات القوة فى المجتمع . وكلما كان الشعب أكثر قوة ، كان القانون أكثر عدلا ، والقضاء أكثر نزاهة .

وللاختصار مرة أخيرة : إن تاريخ البشـرية تلخصه هذه الحقيقة .. إن الإنسـان يعيش فى محاولة مستمرة لتأميم القانون . لجعله ملكية عامة . لا فرد .. لا حزب .. لا سلطة . الشعب فقط هو الذى يجب أن يخدمه القانون . الحق فقط هو المعيار .

كافحت الإنسـانية طويلا لتحقيق هذا الهدف . ويبدو أن الكفاح سيسـتمر لفترة طويلة قادمة ، دون نتيجة حاسمة.

حسن .. في القفص

[مبدئيا : بطاقة هوية . الإسم : حسن هيرمان رو . اسم ولى الأمر السابق : هيرمان رو . اسم ولى الأمر الحالى : عبد السلام عبد الغنى . العمر : ١٣ الهوايات : مشاهدة الأشكال الغريبة التى تسمى نفسها (بنى آدم). اسم الزوجة : حسنية . اسم الشهرة : شيتا . فلسفته فى الحياة : بعض الناس لا حيلة لهم فيما هم عليه . مشكلته فى الحياة : ارتفاع سعر الفول السودانى . رأيه فى مشكلة التليفونات: هع ع ع ع ع ع ع ع ع . أحلام لا يفكر فيها : أن يحقق له مكتب التنسيق رغبته فى دخول كليته المفضلة بالجامعة.]

- ١ -

الإنسان حيوان غادر .

- ٢ -

الحيوان إنسان ناقص . إنسان لم يتم . «حسن» ليس إنسانا . «حسن» هو مجرد شمبانزى . إنه مجهول الأب . مجهول الأم . ولكنه معروف الجنسية . معروف تقريبا . لقد ولد حيث يولد كل شمبانزى . ولد فى غابات افريقيا . من هناك تم اصطياده وترحيله إلى ألمانيا .

- ٣ -

آخر ذكريات «حسن» مع الغابات كانت فى ذلك اليوم الذى وقع فيه فى الأسر . إنها معركة دارت بين الإنسان ، وبين قافلة من الشمبانزى ، كان «حسن» واحدا منهم . معركة

• جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٧٢/٨/٢٦ .

رأى فيها حسن كل رفقائه يسقطون قتلى .. فيما عداه . فى ذلك اليوم – منذ ١٣ سنة – لم يكن اسمه «حسـن» . ولم يكن يعلم أن هدف الإنسـان من اصطياده هو أن يتفرج عليه . هكذا وصل «حسن» إلى أيدى متعهد فى ألمانيا الغربية اسمه «هيرمان» . ومن هناك اشترته حديقة حيوان الجيزة بالقاهرة ، التى قررت على الفور أن تسميه : «حسن» .

– ٤ –

جاء «حسن» إلى القاهرة وعمره ست سنوات . الآن ١٣ سنة . عند وصوله لم يكن يعرف أحدا فى القاهرة . الآن : مازال لا يعرف أحدا فى القاهرة .

– ٥ –

عندما دخل «حسن» إلى قفصه فى حديقة الحيوان بالجيزة ، كان التاريخ هو نوفمبر . من يومها والحياة تسـير به .. نوفمبر بعد نوفمبر بعد نوفمبر . فى السـجن يحتاج الإنسان إلى نوفمـبر واحـد ، أو ينايـر واحد ، أو يوليـو واحد .. لكى يموت حولـه وفى داخله كل شـىء طيب . يموت الوفاء والتفاؤل والأمل . يموت المسـتقبل . تموت الابتسـامة . تموت الحياة .

أن «حسـن» يسـير فى الحياة بمجرد ثلاثة أصدقاء .. أحدهم سـجانه . إنه لايعيش حياته بدافع من الرغبة ، ولكن بحكم الغريزة . إنها الغريزة التى تشـدنا جميعا إلى حياة لا نرضاها .

أن رفيقة «حسـن» فى داخل القفص هى «حسـنية» . لقد تعرفا ببعضهما فى القاهرة ، وهنا فى داخل هذا القفص . لقاء لم يتم وسط غابة .. ولكن فى داخل قفص . لم يتم وهما طليقان .. ولكن بعد أن أصبحا سـجينين . لم يتم بحكم الرغبة .. ولكن بمنطق الضرورة . مسألة سوف يكون لها تأثير خطير تاليا على العلاقة بينهما .

– ٦ –

تقول الأوراق الرسمية إن «حسن» قضى فى هذا القفص حتى الآن سبع سنوات . ولكن الواقع إنه منذ دخل هذا القفص ، هذا السجن ، فإنه لم يعد له عمر . له فقط : أقدمية . أقدميته الآن ٨٤ شهرا وأربعة عشر يوما . هذه الأقدمية تستطيع أن تعتبرها موتا افتراضيا . أو تعتبرها حياة اسمية . مسألة تتوقف على وجهة نظرك .

إن وجهة نظر «حسن» نفسه واضحة .. ليس من كلمات ينطق بها .. ولكن من حركات يصدرهـا . فبصـرف النظر عن المكان الذى نقف نحن فيـه – نحن المتفرجين – داخل أو خارج القفص .. فإن «حسـن» يقف غالبا على بعد نحو عشرة أمتار منا . إنه يحتفظ بهذه المسافة غالبا ، سواء اقتربنا نحن منه ، أو ابتعد هو عنا . حكمة . فى الواقع انها منتهى الحكمة من الشمبانزى «حسن» .. أن يحتفظ دائما بمسافة بينه وبين الناس . ففى هذه الأيام من الأفضل كثيرا أن نرى بعض الناس من بعيد ، من مسافة ، حتى لا نبصق عليهم .

– ٧ –

الناس فى داخل حديقة الحيوان يتزاحمون حول قفص «حسن» . يتزاحمون ويتفرجون . إننى لا أستطيع أن أحكم بدقة : أيهما يتفرج على الآخر ؟ الناس يتفرجون على «حسن».. أم «حسن» هو الذى يتفرج عليهم ؟

مـن خلال الزحـام والمتفرجين يلتقى اثنان من الأصدقاء . مـن طريقتهما فى الترحيب ببعضهما اكتشـفت أنهما يلتقيان بعد غياب طويل . إن الحوار بينهما يدور سريعا ومتلهفا ومتتابعا :

– إيه يا راجل ؟ والله زمان .. فين أراضيك دلوقت ؟

– أنت ما تعرفش ؟ فى وزارة الزراعة ..

– يعنى اللى فى وزارة الزراعة .. يختفى كده ؟

– أبدا والله إحنا تحت النظر ..

– تكونشى اتجوزت ؟ آه .. والله صحيح .. باين فى إيدك وعلى وشك إنك متجوز .. إنما .. أنت عجزت كده ليه ؟

– يا عم .. هو أنا زيك ؟ داير على حل شـعرى ؟ أنا – الحمد لله – متجوز ومبسـوط ٢٤ قيراط .. عقبالك ..

– والله يا سيدى أنا مستعد .. بس هى فين العروسة ؟

– أنا عندى لك عروسة ..

– مين ؟

– مراتى !

- ٨ -

الحارس على قفص «حسن» يتكلم .

يقول عم عبد السلام : شوف يا بيه .. الحيوان ده عقله صغير .. لازم الواحد ياخده على قد عقله . يعنى مثلا.. الواحد ما يضربوش ، ما يزعلوش ، مايقولش له كلمة تضايقه.. حركة تنرفزه ..

«.. عندك مثلا «حسن» و «حسنية»..

«.. دول وصلوا هنا وعمرهم ست أو سبع سنين . أنا قايست وقعدت معاهم . عرفت إنهم كويسين . علشان كده تربيتى لهم جابت نتيجة . طبعا ساعات الحيوان من دول ما يعرفش مصلحته . يعنى مرة كان «حسن» عيان قوى .. فاضطر الدكتور يقرر له ١٥ حقنة.. كل يوم طبعا أنا اللى كنت أحط الجنزير فى رقبته لغاية ما ياخد الحقنة . أول ما خلصت الحقن .. بصيت لقيته مسكنى ، وهات يا ضرب بالأقلام ! ها أعمل عقلى بعقله ؟ مهما كان .. ده شمبانزى . عارف لو «حسنية» هى اللى عملت كده فى .. والله ما كنت سكت لها . «حسنية» دى أصلها شرسة . عمرها ما اتربطت فى جنزير . وبعدين يا بيه .. سيادتك عارف .. عرق النساء ده مالوش أمان ..

«.. عندك مثلا القرود اللى أدامك دول . قرود حبشى . عندنا منهم ثلاثة ذكور .. و١٥ ست . زى ما أنت شايف .. طول النهار خناقات مع بعض . ليه ؟ لأن كل واحدة عايزة تبقى هى البريمو عند الراجل بتاعها . بتيجى مثلا واحدة تلعب شوية .. تأكل بعقل القرد حلاوة . فالباقيين يغيروا . يعملوا إيه ؟ يتخانقوا معاها . يقوم القرد الراجل من دول يشخط فيهم . القرد الحمش يخوفهم ..

«.. ما هو يا بيه سيادتك عارف . كل البلاوى بتيجى من الستات . لو ما كانش فيه ستات .. كانت كل الرجالة تأكل فى طبق واحد ..».

- ٩ -

الشمبانزى «حسن» يتأمل حصته من الطعام . الآن : إفطار . شاى باللبن . عيش .

- ١٠ -

«حسن» فى جلسته هذه معفى من التفكير فى مشاكل هامة وخطيرة .

معفى من : التفكير فى الفواتير التى تزورها مصلحة التليفونات .

ومن : حل مسابقة القرارات المتقاطعة التى نسميها قرارات وزارية .

ومن : متابعة مشكلة فايزة أحمد ومحمد سلطان .

ومن : تطورات الخلاف بين محمد الموجى وبليغ حمدى .

ومن : نقد برامج التليفزيون .

ومن : سماع برنامج ما لا يطلبه المستمعون فى الإذاعة .

ومن : سماع أغنية الطشت قاللى .

- ١١ -

إشاعة لم يسمع بها «حسن».. مع أنها تتردد فى حديقة الحيوان هنا منذ ١٥ سنة :

(كان فى الحديقة أخصائى اسمه «مكارى» . إن مكارى ربطته صداقة طويلة بالشمبانزى السابق «مرزوق» . وفى مرة سافر مكارى فى مهمة إلى مدينة بنى سويف بالصعيد لمدة ثلاثة أيام . فى اليوم الثالث كسر الشمبانزى «مرزوق» قفصه مهتاجا بشدة وخرج مذعورا مفاجئا الجميع باندفاعه فى طريق محدد ، ومتعرج ، تبين سريعا أنه يؤدى إلى مكتب مكارى . وفى لمح البصر .. دخل المكتب وعاث فيه فسادا ومن بين ما تناوله من فوق المكتب ، وبعصبية ، زجاجة حبر . لقد هزها بشدة ثم أسقطها على المكتب فانسكب منها الحبر على الأوراق . فى تلك اللحظة هدأ فجأة ، ثم عاد بخطوات بطيئة ، وباختياره ، لكى يدخل إلى قفصه . عاد حزينا ومرتجفا وممتنعا تاليا عن تناول الطعام . حدث هذا فى الحادية والربع من صباح اليوم ـ الأربعاء . بعد ٨ ساعات تلقت حديقة الحيوانات بالجيزة برقية تلغرافية من بنى سويف . برقية قصيرة تقول : توفى الأستاذ «مكارى» اليوم – الأربعاء – فجأة . الوفاة حدثت فى الحادية والربع صباحا) .

- ١٢ -

تركت قفص «حسن» و «حسنية» وتجولت بين الأقفاص الأخرى بالحديقة . فى داخل القفص – كل قفص – يتم كبت التصرفات التى ورثها الحيوان عن سلالته . إن الحيوان السجين هنا لا يمضى حياته يوما بيوم ، ولا ساعة بساعة ، ولا حتى دقيقة بدقيقة . ولكنه يقضيها ثانية بثانية . فمن داخل القفص أستطيع أن أحس أن الزمن لا يمر . إنه

يكرر نفسه . يدور حول نفسه . مجرد دوران ممل رتيب . فى داخل الأسوار ، داخل السجن ، لاشىء يتحرك .

إن الحيوان أمامى قد يسلى نفسه بالتفرج على الجمهور أمامه . ولكن الجمهور ليس دائما عنصرا مسليا . إنه أحيانا ، بل غالبا ما يكون ، عنصرا مؤذيا . إن هذا يجعل دنيا الحيوان هنا أكثر تعقيدا . إن الحيوان يحاول أن يصبر على الناس – مع المتفرجين – ولكن.. حتى الصبر له حدود . إن الشمبانزى يقذفهم بالأشياء حوله . الأسد يتبول نحوهم . إنسان الغابة يبصق فى اتجاههم . الببغاء تحاول عضهم . أما إذا لم يكن الجمهور مؤذيا .. فإن الحيوان يحاول أن يفعل العكس . يحاول أن يسليهم . إن هذا هو ما يجعل الدب الأسمر يقف على قدميه الخلفيتين ويلوح بمخالبه ويرقص بجسمه و .. النتيجة هى أنك تقذف له بالفول السودانى . إنه ـ الدب ـ لم يأت فى الواقع بحركات خارقة . ولكن ربما يساعده هذا على أن يقضى اليوم وينسى الوقت ويستهلك الزمن .

– ١٣ –

الطعام لحسن . برتقال وبطيخ وعنب ومانجو وبلح و ..

١٠٠ جرام فول سودانى .

١٠٠ جرام جزر .

٢٥٠ جرام أرز محلى بالسكر .

٢٥٠ جرام عيش .

٢ كيلوجرام ونصف موز .

– ١٤ –

حوار آدمى أمام قفص «حسن» :

الإبن يسأل : مش دى شيتا يا بابا ؟

الأب يرد : لا .. دى شمبانزى .. شيتا لسه ما ظهرتش .

الأم تتدخل : يعنى يا خويا إيه الفرق ؟ (ثم للإبن) يا ضنايا .. هى دى شيتا اللى بتطلع فى السيما مع طرزان .

الأب : يا ستى ما تمليش مخ الولد بكلام غلط من دلوقت ..

الأم : يا خويا إنت دايما تكسر بخاطر الولد ؟ والنبى ده حايطلع أشطر منك .. وبكره تشوف ..

الأب : يا ستى ، أشطر أو مش أشطر ، المهم .. ده شمبانزى ..

الأم : إنت بتقول ان ابنك شمبانزى ؟ حد كان قال لك تخلفه ؟

الأب : يا ستى آهى غلطة .. كان يوم أغبر .. يوم واحد أخدته إجازة .. خلفتى لى فيه ولد !

- ١٥ -

الشمبانزى «حسن» يجلس صامتا داخل القفص .

حسن لم يكن هو الذى قال : بعض الناس لا حيلة لهم فيما هم عليه . أشرار . غادرون . كاذبون .

منافقون . ممثلون . نعم . ولكن : لا حيلة لهم فيما هم عليه .

- ١٦ -

نوم الظهيرة .

- ١٧ -

«حسن» يخرج من حجرته إلى قفصه . إنه لم يفعل شيئا . مجرد الخروج والجلوس فى المؤخرة . الجلوس فى تأمل . إنه يتأمل فى مظاهر الحياة حوله . فى الناس . فى الحيوانات الأخرى . فى النباتات . وفى المتفرجين .

وفى : الشمس . الأطفال . الحشائش . الفول السودانى .

وفى : الأشكال الغريبة أمامه ، التى تسمى نفسها .. بنى آدم .

وفى : الضحكات والصيحات التى يقذف بها المتفرجون عليه .

وفى : الهواء والأسوار والفراغ . إلخ . إلخ . إلخ . إلخ . إلخ .....

- ١٨ -

«حسن» ربما يسأل نفسه : لماذا يتجمع الناس أمامه ؟

«حسن» ربما يرد على نفسه : لأنهم رأوا ناسا آخرين يتجمعون أمامه .

- ١٩ -

«حسنية» فى حالة ثورة . هياج وتوتر وثورة . إنها تخبط الأرض بقدميها وتضرب الأسوار بذراعيها . إنها تنسحب من القفص إلى الداخل وهى فى هذه الحالة التى تنتابها على فترات متباعدة . هنا جاء دور عبد السلام . الحارس عبد السلام .

لقد دخل الحارس إلى الحجرة الخلفية . وفى لحظة دخوله هدأت «حسنية» قليلا . إنها فتحت عينيها للحظة ، ثم أغلقتهما من جديد بعد أن ثبتت وجهها فى اتجاه الحارس عبد السلام . «حسنية» أصبحت كما يبدو .. مطمئنة .. أو على الأصح .. فى طريقها إلى أن تصبح مطمئنة . لقد فتحت عينيها من جديد وباسترخاء أكثر وهى تنظر إلى عبد السلام باهتمام . ربما بحذر . ربما بشوق . ربما بقلق . ولكن فى جميع الحالات .. هى تنظر باطمئنان .

إن الفراء يكسو بطنها وجنبيها ، فى لون أسود لامع ، بعلامات صغيرة كثيرة كالقطيفة حول قدميها . إن ذيلها الموج هو أيضا أسود اللون وإن كان لامعا هو الآخر .

إن الحارس يتقدم منها .. متأهبا للاطفتها . إنها تهمهم وتزمجر وتستعد . إنه يبدأ فى مداعبة هذا الشمبانزى كما لو كانت أجمل امرأة فى العالم (هل الفارق كبير ؟!) . إنه يداعبها بحركة هى فى نفس الوقت لطيفة وغرامية . يداعب جسمها كله من الرأس إلى الذيل ، خادشا الفقرات المرنة فى جسمها الأسود . إن «حسنية» تلوح بذراعيها فى خلاعة ، وتضع شيئا فشيئا قليلا من اللطف فى عينيها . ان الحارس يداعبها مرة ومرة ومرة ومرة . وحينما داعبها للمرة الرابعة فإنها بدأت تلين شيئا فشيئا تحت تأثير هذا التملق المدهش . لقد أصدرت «حسنية» واحدا من تلك الأصوات التى تعبر بها القطط عن متعتها . إن الفارق الوحيد هو أن هذه الهمهمة التى تصدر من حلق «حسنية» هى على درجة من القوة والعمق بحيث أن صداها يتردد داخل الغرفة المغلقة ، مثل الذبذبات الأخيرة لأرغن الكنيسة .

أما الحارس عبد السلام ، بعد أن رأى أهمية مداعبته ، كررها من جديد بطريقة يبدو أنها أدهشت «حسنية» وقلبتها . وحينما ابتعد عنها خطوتين ، فإنها قفزت إليه بجسم يهتز ويترنح .. فى خفة عصفور يحجل من غصن إلى غصن .. وبدأت تدلك نفسها فى

قدميه ناظرة إليه بعينيها الواسعتين . عينان بدأ اللمعان فيهما يصبح أكثر نعومة . وهمهمة بدأت تخرج من داخلها فى صوت أقرب إلى صرير المنشار . تانى .. تانى .. تانى ..

إن «حسنية» تتصرف كما لو كانت تطلب من الحارس عبد السلام أن يداعبها من جديد . حاضر . إنه بدأ يداعبها – هذه المرة بشكل مختلف . إنه يلعب فى أذنيها . يداعب بطنها . يخدش رأسها . يدغدغ جمجمتها . وهى – هى – بدأت تبدى مشاعر الإمتنان لرجلها . لقد رفعت رأسها نحوه ، وبسطت رقبتها إلى الأمام ، وعبرت عن رضائها الكامل بالرقود عند قدميه . الآن هدوء وطمأنينة وثقة ورقة . لقد تحولت الشراسة فى عينيها إلى هدوء وثقة . عينان أصبحتا مشحونتين الآن بكمية غامضة من النوايا الطيبة .

أخيرا صاح عبد السلام فى زميله محمد : هات الحقنة بقى على طول !

– ٢٠ –

القضبان تفصلنى عن «حسن» . من داخل القضبان يحس «حسن» بالتعاسة . تعاسة لا حدود لها ، وقضبان لا شرايين فيها .

ومع أن هناك أسبابا كثيرة لتعاسة «حسن» .. إلا أن هناك أسبابا أخرى مضادة تجعله يشعر بالسعادة . إنه – مثلا .. مثلا – ليس مضطرا للإجابة على هذه الأسئلة :

– هل يحقق له مكتب التنسيق رغبته فى دخول الكلية التى يفضلها فى الجامعة ؟

– هل يقف له سائقو التاكسيات ؟

– هل مات أوفقير وزير داخلية المغرب منتحرا .. أو مقتولا ؟

– هل توجد صراصير فى الكوكاكولا ؟

– هل هناك .. أو ليس هناك .. اتفاق بين الدول الكبرى على الدول الصغرى ؟

– هل ماتت المبادئ ؟

– ٢١ –

«حسن» حالته غريبة . «حسن» لم يمارس الجنس مع زوجته ـ المفروض أن «حسنية» زوجته – ولا مرة . منذ رآها داخل القفص منذ ست سنوات . وهو لايحس برغبة فى ذلك . إن المألوف هو أن بعض الحيوانات الأسيرة لاتنجب . حتى لو مارست الجنس فهى لا تنجب . ولكن .. تمتنع عن الجنس تماما ؟ تماما ؟

- ٢٢ -

بالقرب من قفص «حسن» و«حسنية» يجلسان : رجل وامرأة . إنهما فى ربيع العمر . إنهما يجلسان متجاورين على المقعد الخشبى . مقعد غير مريح .

إن الرجل قمحى اللون ضخم الشارب . فى الواقع إننى أندهش : أيهما خلقه الله قبل الآخر .. الرجل أم شاربه ؟

المرأة تجلس بجواره . تتكلم وتتكلم .. بينما هو يستمع . بعد دقيقة بدأ الرجل يسعل . سعالا أشبه بعلامات التعجب التى نكتبها على الورق .

إن المرأة تفتح حقيبتها وتخرج منها المرآة . إنها معجبه بشفتيها . بوجهها الذى هو طويل وأبيض . بابتسامتها المترددة على شفتيها . شفتان تكشفان عن أسنان بيضاء وكاملة . أن عينيها بلون البندق (فاكر البندق ؟) . الفم عريض . رذاذ من النمش يغطى كتفيها وشىء من الخجل يغطى وجهها . خجل صناعى كما يبدو . تمثيل .. ربما .

أن المرأة تسأل الرجل : ايه أكثر حاجة بتحبها فى الدنيا ؟

أنه ينظر إليها بلطف ويقول : أنت ..

وقبل أن يراوده إحساس بالانتصار لأنه قال لها الإجابة الصحيحة فإنه يسألها : طيب وأنت ؟ ايه أكثر حاجة بتحبيها ؟

إنها تفكر لحظة وتقول : أنا .

- ٢٣ -

«حسن» و «حسنية» فى حالة غرام شفوى . غرام مع وقف التنفيذ . إنهما يتبادلان النظرات .. ربما أكثر .. لا أعرف بالضبط . كل ما أعرفه هو أنهما محرومان بالتأكيد من شىء هام : القبلة . نعم . الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يعرف ما هى القبلة .

- ٢٤ -

«حسنية» فى حالة توتر . لقد اقتربت من «حسن» . فى البداية حاولت أن تستفزه . الآن تقترب أكثر .. وأكثر . إنها تحاول أن تتملقه . تثيره . تغريه . لا .

- ٢٥ -

العصر . حمام لـ «حسن» .

- ٢٦ -

أمس قال لى الدكتور حسن حافظ مدير حديقة الحيوانات بالجيزة : «فى الحيوانات نجد الصراحة والوضوح والبساطة . فى دنيا الإنسان نجد العكس . إنسان يصادقك ثم يطعنك فى الظهر . إنسان يحبك .. ثم يغدر بك . مع الحيوان لايمكن . إنه دائما واضح . إنه لا يهاجم إلا فى حالتين اثنتين : الجوع .. والدفاع عن النفس . وحتى فى هذه الحالة الأخيرة فإنه أحيانا ـ كالأسد مثلا ـ ينذر خصمه أولا . يا أخى .. هو الواحد بيحب الحيوانات من قليل».

- ٢٧ -

الشمبانزى «حسن» فى حالة اعتكاف . لقد ترك القفص ودخل إلى حجرته معتكفا وجالسا وصامتا . إنه صامت كظله . حزين كعينيه . عينان عميقتين فى حزنهما بما يتجاوز قدرة وحق أى عينين فى العمق أو الحزن . عينان تتسولان من أى إنسان أن يفهمه .

وعندما دخل الحارس عبد السلام إلى الحجرة نهض «حسن» نصف واقف .. فى شبه تحية منه للحارس . حقيقى .. جنتلمان . إن «حسن» ليس شاذا . ولكنه أيضا ليس حيوانا عاديا . بجسم نحيف . بجلد خشن أسمر . بوقار غير مقصود فى حركاته . إنه يوحى إلى بأنه ينتمى إلى الندرة القليلة من الحيوانات التى يستطيع الإنسان أن يتحدث إليها وهو مطمئن .

أننى أحيانا .. بينما أتبادل الحديث مع حارسه .. أرى «حسن» يقفز نحونا متابعا جزءا من ثرثرتنا . وبصرف النظر عن ما نناقشه .. السياسة .. الرياضة .. الضرائب .. حالة الطقس .. الغلاء .. أو حتى الحياة عموما .. فإن رأى «حسن» واحد فى جميع الحالات . رأيه هو : الصمت . أنه بين وقت وآخر قد يهمهم : هع ع ع ع ! وبهذه الـ «هع» يعتبر «حسن» أنه قد فسر كل شىء ، وقال المختصر المفيد .

وحينما أنظر إليه محاولا اكتشاف ماضيه .. فإنه لا يتحرك . إنه يحمل رأسا ضخمة فوق كتفيه . وهو يكتفى غالبا بأن يهزها يمينا ويسارا .. كما لو كان يخبرنى بأن الماضى هو الماضى .. وهو يفضل ألا يتحدث عنه . يوما ما .. ربما . ولكن .. ليس الآن .

- ٢٨ -

ما هى بالضبط - بالضبط - أزمة السينما المصرية ؟

أن «حسن» لايعلق على هذا السؤال .. ولا على أى سؤال آخر .

- ٢٩ -

قصة حب ترددت طويلا فى حديقة الحيوانات . «حسنية» كانت فى قصة حب درامية مع حارسها . لقد ربطتها بحارسها قصة حب . علميا تعتبر قصة تآلف . بحيث أنه كلما كان يدخل عليها فى القفص .. فإنها كانت تدور وتدور وتلف حول نفسها داخل القفص العريض الواسع . إن عينيها تدوران بسرعة أكبر من جسمها . عينان تدوران من الأرض إلى السقف .. ثم من السقف إلى الأرض .. بشكل متتابع وعصبى .

وعندما جلس الحارس - بلا خوف - إلى جانبها .. فإنهما بدآ يلعبان معا .. كالعادة . إنه يجذب أذنيها ويدلكهما بحرارة .. ضاغطا على الأجزاء الرقيقة فى جسمها . وهى - «حسنية» - كانت تتركه يفعل بها ما يشاء .

إن الحارس تعلم بالوقت والتجربة معنى كل انحراف فى صوتها .. وكل تعبير فى عينيها .. وكل نزوة فى تصرفاتها .

وفى مرة توقفت أصابع الحارس عن تدليكها . لقد توقفت لأنه انشغل بالنظر إلى سيدة رائعة الجمال تسير أمامه فى الحديقة . فى الواقع أن الحارس لم يكن ينظر . كان يحملق . إنه يحملق فى السيدة مأخوذا بجمالها .. منبهرا بطلعتها .. مسحورا بمشيتها .. البعض يقول : خلاعتها .

إن تنبيهات «حسنية» لم تجعله يفيق . إن همهماتها لم تجعله يستأنف التدليك .

وعندما أفاق الحارس من نوبة ذهوله بعد دقيقتين ونظر إلى «حسنية» .. محاولا أن يفهم سر اعتراضها .. فإنها تبادلت معه نظرة مشحونة بالمعانى. نظرة قاتلة . نظرة سحبت منها كل الثقة التى وضعتها فيه طوال سنوات وسنوات . أنها ارتجفت . أنها ارتعشت . وعندما نظر إليها من جديد وجد فى عينيها وميضا كالبرق ، ثم : أغلقتهما .

عندما فتحت «حسنية» عينيها من جديد بعدها بلحظات بدت كالساعات .. لم تكن أبدا هى «حسنية» التى عرفها الحارس من قبل . لقد انتهى كل شىء .

إن كل شـيء تجمد عنـد تلك النقطة . إن قصة الحب الطويلـة .. أو قصة التآلف .. انتهت لنفس السبب الذى تنتهى عنده كل قصص الحب العظيمة . انتهت بسبب : سوء الفهم .فلسـبب ما .. يشـك طرف في خيانة الطرف الآخر . إن عزة النفس تمنعهما من الوصول إلى تفسير . إنهما يتشاجران ويفترقان بدافع من العناد والمكابرة .

ربما لو كانت «حسنية» امرأة .. لو كانت إنسانة .. فربما كانت تكفى لحظة واحدة ، أحيانـا نظـرة واحدة ، لكى ينهـار العناد وتسـقط المكابرة . ولكن فى دنيـا الحيوان .. لا يمكن . من يومها .. لايمكن .

– ٣٠ –

سؤال محتمل من «حسن» : لماذا يرتبط الإنسان أحيانا بالحيوانات ؟ بالكلاب أو القطط مثلا ؟

إجابة محتملة من «حسـن» : نحن نرتبط بالحيوانات أحيانا .. ليس لأنها مخلصة .. وليس لأنها صادقة .. ولكن لأنها : لا تنتقدنا .

– ٣١ –

اليوم هو الجمعة .

– ٣٢ –

الزحام حول «حسن» و«حسنية» وصل إلى أقصاه . أطفال وأمهات وآباء . شيوخ وشبان وأفندية .

مـن بين الأفندية واحد يريد أن يتسـلى . لقد فكر قليلا .. ثـم اختفى . بعد دقيقتين عاد مع أصدقائه .. حاملا ساندويتشـا فى يده .. وقذف به إلى الشـمبانزى «حسن» داخل قفصه .

تناول «حسن» الساندويتش .. وبدأ يأكله . شكرا .

بعد لحظتين توقف السـاندويتش فى حلقوم الشـمبانزى «حسـن» . إن جسمه يرتعش وينتفض .. عيناه تتسعان وتتسعان . شيء ما انحشر فى رقبته. شيء لا يريد أن يدخل إلى معدته .. أو أن يخرج من فمه ..

ماذا جرى ؟

ضحك الشاب صاحب الساندويتش لزميله قائلا : غريبة ! .. أنا حطيت له المسمار في الساندويتش .. وهو مش قادر يبلعه ؟ !

رجل يسأل الشاب بحنق وغيظ : وليه يا إبنى يعنى الأذية دى ؟ ليه حطيت له مسمار في الساندويتش ؟

رد الشاب : إيه يعنى ؟ آهى تسالى ..

- ٣٣ -

الإنسان حيوان غادر .